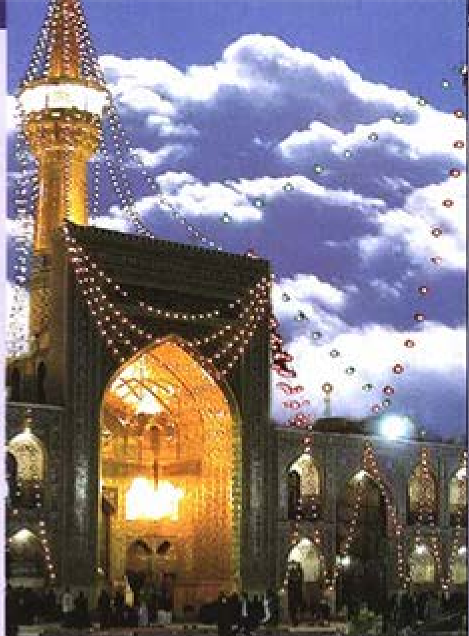
سلسلة النبي وأهل بيته قدوة وأسوة

١٠



السيد محمد تقي المدرسي

الإمام الرضا عليه السلام

قدوة وأسوة



الإمام الرضا عليه السلام

قدوة وأسوة

سلسلة النبي وأهل بيته قدوة وأسوة - ١٠

الإمام الرضا عليه السلام

قدوة وأسوة

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي



١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

هوية الكتاب:

* الكتاب: الإمام الرضا عليه السلام قدوة وأسوة.
* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
* الطبعة: الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
* الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر، لبنان، بيروت. (alasrr@gmail.com).
دار كميل للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، طريق المطار، ص.ب: ٧٩٥٧/ ١١ (dar_komail@yahoo.com).

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾

تمهيد

الحمد لله رب العالمين وسلام الله على الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين.

وصلى الله على سيد الخلق أجمعين المهيمن على رسالات الله خاتم النبيين محمد وعلى آله الهداة الميامين.

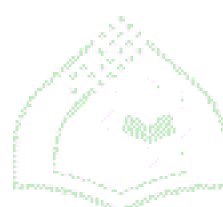
وبعد..

إن حياة المعصومين الأربعة عشر كانت زاهرة بالحب والمعرفة والعبر والبصائر، إلَّا أن ما بلغنا من ضياء بعضهم كان أكثر من البعض الآخر، والإمام الرضا عليه السلام من أولئك الذين تسنَّت لنا فرصة الاهتداء إلى المزيد من فضائلهم، ولأنهم عند الله نور واحد، فليس علينا إلَّا الاستضاءة بسيرته عليه السلام لمعرفة سيرة سائر المعصومين من آبائه عليهم السلام.

وأظن أن حياة الإمام الرضا عليه السلام كانت فاتحة مرحلة جديدة من حياة الشيعة حيث خرجت بصائرهم وأفكارهم من مرحلة الكتمان إلى الظهور والإعلان، ولم يعد الشيعة من بعد ذلك العهد طائفة معارضة في مناطق خاصة، بل أصبحوا ظاهرين في كل البلاد، ولقب الرضا الذي أطلق على الإمام علي بن موسى عليه السلام يدل -فيما يدل- على أنه

كان إماماً رضي به الموافق والمخالف.

وهـا نحن نتبرك بالحديث عنه، سـائلين الـرب أن يرزقنا معرفته واتّباعه وشفاعته وشفاعة جده المصطفى ﷺ.





الفصل الأول

وَجاءَ المولُودُ الميمُونُ

يذكر الرواة أن أم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حميدة المصفاة كانت من أشراف العجم، فاشترت جارية قد ولدت في البلاد العربية وتربَّت فيها، فلما اختبرتها ووجدتها من أفضل الناس في دينها وعقلها، اختارتها لولدها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وقالت له: «يا بُنَيَّ إنَّ تُكْتَمَ (وهذا أحد أسمائها) جَارِيَةٌ مَا رَأَيْتُ جَارِيَةً قَطُّ أَفْضَلَ مِنْهَا، وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُطَهِّرُ نَسْلَهَا إِنْ كَانَ لَهَا نَسْلٌ، وَقَدْ وَهَبْتُهَا لَكَ فَاسْتَوْصِ بِهَا خَيْراً».

وذكروا من فضلها: أنها لَمَّا وَلَدَتْ لَهُ الرِّضَا عليه السلام سَمَّاهَا الطَّاهِرَةَ، فَكَانَ الرِّضَا عليه السلام يَرْتَضِعُ كَثِيراً وَكَانَ تَامَّ الْخَلْقِ، فَقَالَتْ: أَعِينُونِي بِمُرْضِعَةٍ، فَقِيلَ لَهَا: أَنَقَصَ الدَّرُّ؟ فَقَالَتْ: لَا أَكْذِبُ، وَاللهِ مَا نَقَصَ، وَلَكِنْ عَلَيَّ وِرْدٌ مِنْ صَلَاتِي وَتَسْبِيحِي وَقَدْ نَقَصَ مُنْذُ وَلَدْتُ[1].

وقد ذكر المؤرخون أسماء عديدة لوالدة الإمام، لأنها جارية فكانت تسمى عند كل مولاة باسم جديد. فمن أسمائها: نجمة، وأروى، وسكن، وسمان، وتكتم، وطاهرة. إلَّا أن أشهر الأسماء هو تكتم، وبعد ولادتها سُمِّيت طاهرة، وأم البنين.

وفي سنة مائة وثمان وأربعين من الهجرة في اليوم الحادي عشر من

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٥.

شهر ذي القعدة الحرام[1] وُلِدَ الإمام عليه السلام، وعمَّ بيت الرسالة سرور وبهجة.

تقول أمه (تكتم الطاهرة): «لَمَّا حَمَلْتُ بِابْنِي عَلِيٍّ لَمْ أَشْعُرْ بِثِقْلِ الْحَمْلِ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ فِي مَنَامِي تَسْبِيحاً وَتَهْلِيلاً وَتَمْجِيداً مِنْ بَطْنِي فَيُفْزِعُنِي ذَلِكَ وَيَهُولُنِي، فَإِذَا انْتَبَهْتُ لَمْ أَسْمَعْ شَيْئاً، فَلَمَّا وَضَعْتُهُ وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ وَاضِعاً يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ رَافِعاً رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ كَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ، فَدَخَلَ إِلَيَّ أَبُوهُ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام فَقَالَ لِي: هَنِيئاً لَكِ يَا نَجْمَةُ كَرَامَةُ رَبِّكِ، فَنَاوَلْتُهُ إِيَّاهُ فِي خِرْقَةٍ بَيْضَاءَ فَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ الْيُمْنَى وَأَقَامَ فِي الْيُسْرَى، وَدَعَا بِمَاءِ الْفُرَاتِ فَحَنَّكَهُ بِهِ ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيَّ وَقَالَ: خُذِيهِ فَإِنَّهُ بَقِيَّةُ اللهِ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ»[2].

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد منحه لقب (الرضا) منذ نعومة أظفاره، كما أنه أعطاه كنية أبي الحسن، فكان كثير الحب له. هكذا يروي المفضل بن عمر يقول:

دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام وَعَلِيٌّ ابْنُهُ عليه السلام فِي حَجْرِهِ وَهُوَ يُقَبِّلُهُ وَيَمَصُّ لِسَانَهُ، وَيَضَعُهُ عَلَى عَاتِقِهِ وَيَضُمُّهُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: «**بِأَبِي أَنْتَ مَا أَطْيَبَ رِيحَكَ وَأَطْهَرَ خَلْقَكَ وَأَبْيَنَ فَضْلَكَ!**» قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! لَقَدْ وَقَعَ فِي قَلْبِي لِهَذَا الْغُلَامِ مِنَ الْمَوَدَّةِ مَا لَمْ يَقَعْ لِأَحَدٍ إِلَّا لَكَ، فَقَالَ لِي: «**يَا مُفَضَّلُ! هُوَ مِنِّي بِمَنْزِلَتِي مِنْ أَبِي** عليه السلام ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]».

---

(١) وقيل: بل ولد في الحادي عشر من ذي الحجة. انظر: بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢ - ٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٤.

قَالَ: قُلْتُ هُوَ صَاحِبُ هَذَا الأَمْرِ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، مَنْ أَطَاعَهُ رَشَدَ وَمَنْ عَصَاهُ كَفَرَ**»(١).

وهكذا ترعرع الوليد في ظل والده يُزكّيه بآداب الإمامة ويعلّمه أسرارها ويُطلعه على ودائع النبوة.

وكان الإمام موسى بن جعفر يقول -حسبما جاء في حديث-:

«**عَلِيٌّ ابْنِي أَكْبَرُ وُلْدِي، وَأَسْمَعُهُمْ لِقَوْلِي، وَأَطْوَعُهُمْ لِأَمْرِي، يَنْظُرُ مَعِي فِي كِتَابِ الْجَفْرِ وَالْجَامِعَةِ وَلَيْسَ يَنْظُرُ فِيهِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ وَصِيُّ نَبِيٍّ**»(٢).

وخلال سني حياته مع والده تولى -فيما يبدو لي- إدارة بعض شؤون الطائفة نيابةً عن والده، ولعل الحديث التالي يدل على ذلك. يقول زِيَادِ بْنِ مَرْوَانَ الْقَنْدِيِّ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي إِبْرَاهِيم (الإمام موسى بن جعفر عليه السلام) وَعِنْدَهُ عَلِيٌّ ابْنُهُ فَقَالَ لِي:

«**يَا زِيَادُ هَذَا كِتَابُهُ كِتَابِي، وَكَلَامُهُ كَلَامِي، وَرَسُولُهُ رَسُولِي، وَمَا قَالَ فَالْقَوْلُ قَوْلُه**»(٣).

وقد أكثر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من بيان فضائل ابنه الرضا عليه السلام وأنه خليفته والإمام من بعده مما يثير السؤال عن حكمة ذلك، ولعل من الأسباب التي تهدينا إلى تلك الحكمة:

أن الظروف السياسية كانت قاسية جدًّا؛ حيث التقيّة في أشدها، وأهل البيت مطاردون، وهارون الرشيد كان يلاحق أصحاب أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم من بلد إلى بلد، ويقتلهم زرافاتٍ ووحداناً.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢١.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢٠.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٩.

والإمام موسى بن جعفر يتنقل بأمره من سجن لآخر، فكانت إمكانية تفرُّق كلمة الشيعة بعد وفاته تجعل من الحكمة التأكيد على ولاية الإمام الرضا عليه السلام.

والأصحاب بدورهم كانوا يتوجّسون خِيْفَةً من اختفاء الإمام فجأة دون معرفة الإمام من بعده، يظهر ذلك كله من بعض الأحاديث التالية:

رُوِيَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ سَلِيطٍ الزَّيْدِيِّ قَالَ: لَقِيتُ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِمَامِ بَعْدَكَ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَبُوكَ، قَالَ: فَقَالَ: «**كَانَ أَبِي فِي زَمَنٍ لَيْسَ هَذَا مِثْلَهُ**».

قَالَ يَزِيدُ: فَقُلْتُ: مَنْ يَرْضَ مِنْكَ بِهَذَا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ. قَالَ: فَضَحِكَ ثُمَّ قَالَ: «**أُخْبِرُكَ يَا أَبَا عُمَارَةَ! أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ مَنْزِلِي فَأَوْصَيْتُ فِي الظَّاهِرِ إِلَى بَنِيَّ وَأَشْرَكْتُهُمْ مَعَ عَلِيٍّ ابْنِي وَأَفْرَدْتُهُ بِوَصِيَّتِي فِي الْبَاطِنِ**»[1].

ويروي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْهَاشِمِيُّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ الْقَبْرِ (أي قبر رسول الله صلى الله عليه وآله) نَحْوَ سِتِّينَ رَجُلًا مِنَّا وَمِنْ مَوَالِينَا، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام وَيَدُ عَلِيٍّ ابْنِهِ عليه السلام فِي يَدِهِ، فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَنْ أَنَا**»؟

قُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا، قَالَ: «**سَمُّونِي وَانْسُبُونِي**».

فَقُلْنَا: أَنْتَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، فَقَالَ: «**مَنْ هَذَا مَعِي**»؟

قُلْنَا: هُوَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: «**فَاشْهَدُوا أَنَّهُ وَكِيلِي فِي حَيَاتِي وَوَصِيِّي بَعْدَ مَوْتِي**»[2].

وقد اتخذ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كافة وسائل الاحتياط

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٥.

لبيان إمامة الإمام الرضا. فمثلاً: «كَتَبَ لَهُ كِتَاباً أَشْهَدَ فِيهِ سِتِّينَ رَجُلاً مِنْ وُجُوهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»[1].

وكان يُرجع الأمور إليه في حياته كما فعل عندما أشخص به إلى البصرة، حيث دفع إلى عبد الله بن وحوم كتباً وأمره بإيصالها إلى نجله الرضا في المدينة[2].

وكتب في البصرة ألواحاً وبعثها إلى شيعته هناك، وقد كتب فيها: "**عَهْدِي إِلَى أَكْبَرِ وُلْدِي**"[3].

وكان يأخذ بعض الحقوق التي تُجبى إليه ويُبقي بعضها ليعطيه إلى وصيه الذي يطالبه بها ليكون علامة ظاهرة، كما فعل بداود بن زربي[4].

وذلك بعكس الظروف السياسية الصعبة التي كان يعيشها الإمام في حياة والده والتي احتاط الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فيها لتبقى الإمامة بعيدة عن الشكوك.

ويظهر ذلك بوضوح من وصيةٍ لنجله بأن يسكت مادام الرشيد حيًّا فإذا هلك نطق بالحق.

ومن جهة أخرى في مثل هذه الظروف الصعبة التي كان الشيعة يعيشونها على عهد طاغية بغداد هارون الرشيد، كان من الممكن أن تنتشر الخرافات التي لها سوق رائجة عند اشتداد الأزمات. ولعل بعض التيارات السياسية كانت وراء نشر مثل تلك الخرافات لأهداف معينة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٧.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٩.
(٤) يبدو من بعض الأحاديث أن هذا الرجل كان يعيش حالة التقية مما يجعل هذا الإجراء مناسباً لحاله.

فدرءاً لمثلها قام الإمام الكاظم ببيان إمامة ابنه الرضا بذلك الوضوح.

وبالرغم من أن فكرة غياب الإمام الكاظم انتشرت ردحاً من الزمان وغذتها أيدٍ خائنة وأخرى جاهلة، فقالوا: إن الإمام لم يمت، وإنه مهدي هذه الأمة. ووقفوا عند الإمام السابع فسمّوا (الواقفية).

إلّا أنها لم تلبث أن زالت. ويبدو أن أحد أهم أسباب ذلك، تأكيد الإمام عليه السلام في تعريف الشيعة بأن وصيّه هو الإمام الرضا عليه السلام.

خلقه وفضائله:

كان الإمام الرضا عليه السلام بمثابة قرآن ناطق، فخُلُقه من القرآن، وعلمه ومكرماته من القرآن، أوَليس القرآن هو آية الله العظمى في خلقه، أوَلم يُيَسّره ربنا لمن شاء من عباده أن يستقيم عليه؟ أوَيكون ذلك غريباً أن يصبح من تَمَثَّل القرآن في حياته آية عظمى لرب العالمين.

والنبي صلى الله عليه وآله كان أفضل وأعظم ميزاته، أنه عبد يُوحى إليه، وحين سُئل بعضهم عن خُلُقه العظيم قال: «**كَانَ الْقُرْآنُ خُلُقَهُ**..»[1].

وأعظم ميزات الإمام علي عليه السلام أن الله قد جعل أُذُنَهُ واعية للقرآن.

وقد ذَكَّرَنَا الرسولُ بأنه مُخلِّف بعده الثقلين: كتاب الله وعترته أهل بيته، ثم بيّن أنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض. أوَلا يعني ذلك أن أهل بيت الرسالة عليهم السلام كانوا مشكاة نور القرآن ومعدن خيرات الوحي ومستقر علم الله؟.

وكان الإمام الرضا عليه السلام قد تمثَّل هذا النور -بكل وجوده- حتى

(١) شرح نهج البلاغة، ج٦، ص٣٤٠.

جاء في الحديث: عَنْ أَبِي ذَكْوَانَ قَالَ سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْعَبَّاسِ يَقُولُ:

مَا رَأَيْتُ الرِّضَا عليه السلام سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا عَلِمَهُ، وَلَا رَأَيْتُ أَعْلَمَ مِنْهُ بِمَا كَانَ فِي الزَّمَانِ إِلَى وَقْتِهِ وَعَصْرِهِ، وَكَانَ الْمَأْمُونُ يَمْتَحِنُهُ بِالسُّؤَالِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَيُجِيبُ فِيهِ، وَكَانَ كَلَامُهُ كُلُّهُ وَجَوَابُهُ وَتَمَثُّلُهُ انْتِزَاعَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَخْتِمُهُ فِي كُلِّ ثَلَاثٍ وَيَقُولُ: **"لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْتِمَهُ فِي أَقْرَبَ مِنْ ثَلَاثَةٍ لَخَتَمْتُ، وَلَكِنِّي مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ قَطُّ إِلَّا فَكَّرْتُ فِيهَا وَفِي أَيِّ شَيْءٍ أُنْزِلَتْ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ، فَلِذَلِكَ صِرْتُ أَخْتِمُ فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ"**[1].

ولكن دعنا نعرف كيف تمثَّل إمامنا الرضا عليه السلام القرآن بهذه الدرجة، أوَيُمكننا أن نتبعه في ذلك؟

القرآن كتاب الله ومن لا يتصل قلبه بنور الله لا يعرف كتابه، أوَلَمْ يقل ربنا سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[2].

وبدرجة الإيمان، وبمستوى اليقين، وبقدر تجلي عظمة الرب في القلب يستضيء الإنسان بنور الله الذي تجلَّى به في كتابه.

والإمام الرضا عليه السلام عظَّم الله ووقَّره، وسلَّم له أمره، واستصغر كل شيء سواه، واستعد لكل بلاء في سبيله، وكان كل ذلك وسيلته إلى ربه.

دعنا نلتمس بعض الشواهد على ما قلنا لا لنزداد بالإمام معرفة فقط، بل لكي تخشع قلوبنا أيضاً بهذه السيرة التي تفيض روحاً إلهيًّا وضياءً.

كان من عبادته عليه السلام أنه إذا صلّى الفجر في أول وقتها يسجد

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

لربه فلا يرفع رأسه الى أن ترتفع الشمس[1].

وعندما كلّف المأمون العباسي واليه على المدينة بمرافقة الإمام إلى خراسان، سأله -بعد مقدمه إليها- عن أحواله في الطريق، ففصّل الحديث عن درجات عبادته وذكره وتبتله، فلما قصّ عليه ذلك أمره بأن يكتم عن الناس ذلك. وكان مما نقله:

كَانَ إِذَا أَصْبَحَ صَلَّى الْغَدَاةَ، فَإِذَا سَلَّمَ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ يُسَبِّحُ اللهَ وَيُحَمِّدُهُ وَيُكَبِّرُهُ وَيُهَلِّلُهُ وَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ ﷺ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَةً يَبْقَى فِيهَا حَتَّى يَتَعَالَى النَّهَارُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ يُحَدِّثُهُمْ وَيَعِظُهُمْ إِلَى قُرْبِ الزَّوَالِ، ثُمَّ جَدَّدَ وُضُوءَهُ وَعَادَ إِلَى مُصَلَّاهُ..

وبعد أن يذكر كيفية صلاته وسجداته ونوافله إلى وقت العصر مما هو معروف في الفقه، يقول: أَقَامَ وَصَلَّى الْعَصْرَ، فَإِذَا سَلَّمَ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ يُسَبِّحُ اللهَ وَيُحَمِّدُهُ وَيُكَبِّرُهُ وَيُهَلِّلُهُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَةً يَقُولُ فِيهَا مِائَةَ مَرَّةٍ «حَمْداً لله».

ثم يذكر كيف كان يُصلّي بعد غروب الشمس ويسبّح ربه حتى يمضي قريب من ثلث الليل ثم يأوي إلى فراشه، فإذا كان الثلث الأخير من الليل قام من فراشه لنافلة الليل، واستمر على ذلك حتى يطلع الفجر، ثم يجلس للتعقيب حتى تطلع الشمس، ويسجد حتى يتعالى النهار.

ويضيف: وَكَانَ يُكْثِرُ بِاللَّيْلِ فِي فِرَاشِهِ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ بَكَى وَسَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذَ بِهِ مِنَ النَّارِ»[2].

وكان الإمام يرى أن ما له من فضل إنما هو بالتقوى وليس فقط

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩٢ - ٩٤.

بالانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالولادة.

هكذا البيهقيُّ، عن الصّوليّ، عن محمّدِ بنِ موسى بنِ نصرِ الرّازيّ قال: سمعتُ أبي يقولُ: قال رجلٌ للرِّضا عليه السلام: واللهِ ما على وجهِ الأرضِ أشرفُ منكَ أباً، فقال: «**التَّقْوى شَرَّفَتْهُمْ، وَطاعَةُ اللهِ أَحْظَتْهُمْ**».

فقال لهُ آخرُ: أنتَ واللهِ خيرُ النّاسِ، فقال لهُ: «**لا تَحْلِفْ يا هَذا! خَيْرٌ مِنّي مَنْ كانَ أَتْقى للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَطْوَعَ لَهُ. وَاللهِ ما نَسَخَتْ هَذِهِ الآيَةَ آيَةٌ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾**»[1].

وهذا الحديث يُذكّرنا بما يُروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**وَلايَتي لِعَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ عليه السلام أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وِلادَتي مِنْهُ**».

وهكذا أطاع الله بكل جوانب حياته، فأحبه الله ونوّر قلبه بضياء المعرفة وألهمه من العلوم ما ألهمه، وجعله حجة بالغة على خلقه. أوَلَمْ نقرأ سورة (ص) كيف بيّن فيها ربنا مواهبه لعباده الصالحين، وأنه إنما آتاهم كل تلك المواهب لعبادتهم وإخلاصهم، فقال مثلاً:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[2]. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[3]. إلى أن يقول: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[4].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩٥.

(٢) سورة ص، الآية: ١٧.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٠.

(٤) سورة ص، الآية: ٢٥ - ٢٦.

وهكذا أناب الإمام الرضا عليه السلام إلى ربه فوهب الله له ما شاء من الكرامة والعلم.

لقد زهد في الدنيا واستصغر شأنها، ورفض مغرياتها، فرفع الله الحجاب بينه وبين الحقائق؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو حجاب سميك بين الإنسان وبين حقائق الخلق.

يذكر البيهقي عن الصولي: «كَانَ جُلُوسُ الرِّضا عليه السلام فِي الصَّيْفِ عَلَى حَصِيرٍ وَفِي الشِّتَاءِ عَلَى مِسْحٍ، وَلُبْسُهُ الْغَلِيظَ مِنَ الثِّيَابِ، حَتَّى إِذَا بَرَزَ لِلنَّاسِ تَزَيَّنَ لَهُمْ»[1].

وكان ذلك عندما أقبلت الدنيا عليه فلم يقبلها، وتزيَّنت له فلم يغترّ بها. بل عندما كانت الخلافة العباسية في أوج عظمتها وبذخها وترفها وكان الإمام ولي عهد الخليفة في الظاهر يومئذ عاف الدنيا وشهواتها. هكذا تروي جارية اسمها عذر فتقول: «اشْتُرِيتُ مَعَ عِدَّةِ جِوَارٍ مِنَ الْكُوفَةِ، وَكُنْتُ مِنْ مُوَلَّدَاتِهَا (كانت مولودة في الكوفة)، قَالَتْ: فَحُمِلْنَا إِلَى الْمَأْمُونِ فَكُنَّا فِي دَارِهِ فِي جَنَّةٍ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالطِّيبِ وَكَثْرَةِ الدَّنَانِيرِ، فَوَهَبَنِي الْمَأْمُونُ لِلرِّضَا عليه السلام، فَلَمَّا صِرْتُ فِي دَارِهِ فَقَدْتُ جَمِيعَ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، وَكَانَتْ عَلَيْنَا قَيِّمَةٌ تُنَبِّهُنَا مِنَ اللَّيْلِ وَتَأْخُذُنَا بِالصَّلَاةِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَشَدِّ مَا عَلَيْنَا، فَكُنْتُ أَتَمَنَّى الْخُرُوجَ مِنْ دَارِهِ»[2].

وأعظم الزهد زهده في الخلافة بالطريقة التي عرضها عليه المأمون العباسي، فإن من الناس من يزهد في الدنيا طلباً لما هو أعظم من متاعها. ولا أعظم من الرئاسة في أعين الإنسان.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٨٩.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٨٩.

يقول الفضل بن سهل الذي شهد حوار المأمون مع الإمام الرضا في شأن الخلافة: ما رأيت الملك ذليلاً مثل ذلك اليوم.

يقول المأمون العباسي فيما رُوي منه: «فَجَهَدْتُ الْجُهْدَ كُلَّهُ وَأَطْمَعْتُهُ فِي الْخِلَافَةِ وَمَا سِوَاهَا فَمَا أَطْمَعَنِي فِي نَفْسِهِ»[1].

السبيل إلى اللّه:

ومن يُعظِّم الله يُعظِّم أولياءه، ومن يرفض توقير أولياء الله يفقد السبيل الى الله. والإمام الرضا عليه السلام سلك هذا السبيل إلى ربه. ولعمري إن الشيطان يُزيِّن للإنسان مخالفة أولياء الله والتكبر عليهم حتى يُضله عن سبيل الله القويم، ويُلقيه في تيه السبل المتفرقة.

وكلما ازداد الإنسان تسليماً لقيادته الشرعية، وحبًّا لولي أمره، ولأولياء الله من الأنبياء والأوصياء والصالحين، يزداد من ربه قرباً.

والإمام الرضا عليه السلام كان -كما سائر الأئمة عليهم السلام- أطوع الناس لولي أمره الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فجعله الله حجة من بعده.

يقول الإمام الكاظم: «**عَلِيٌّ ابْنِي أَكْبَرُ وُلْدِي وَأَسْمَعُهُمْ لِقَوْلِي وَأَطْوَعُهُمْ لِأَمْرِي**»[2].

وقال: «**عَلِيٌّ أَكْبَرُ وُلْدِي وَأَبَرُّهُمْ عِنْدِي وَأَحَبُّهُم**»[3].

إن بين الإنسان وأولياء الله حجاب من الغرور والكبر، فمن

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤٥. وسيأتي الحديث إن شاء الله مفصلاً حول ما جرى بينه عليه السلام وبين المأمون.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢٤.

خالف هواه وتحدّى غروره وحارب كبر نفسه، يخرق هذا الحجاب، فيدخل في حزب الله وينتمي إلى أوليائه ويستقر في مقامه عند الله. لذلك أكّد القرآن على الكافرين قولهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[1].

وقد جاء في حديث روي عَنِ ابْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ مُوسَى عليه السلام وَقَفَ النَّاسُ فِي أَمْرِهِ، فَحَجَجْتُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ فَإِذَا أَنَا بِالرِّضَا عليه السلام، فَأَضْمَرْتُ فِي قَلْبِي أَمْراً فَقُلْتُ: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ الْآيَةَ، فَمَرَّ عليه السلام كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ عَلَيَّ، فَقَالَ:

«أَنَا وَاللهِ الْبَشَرُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَنِي»، فَقُلْتُ: مَعْذِرَةٌ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكَ فَقَالَ: «مَغْفُورٌ لَكَ»[2].

الشجرة الطيبة:

كان الرضا عليه السلام من الشجرة الطيبة التي أكرمها الله، وبارك لأمة محمد فيها، وقال سبحانه: ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

ولقد اختار الله يحيى بن زكريا عليهما السلام للنبوة وآتاه الحكم صبياً، بحكمته البالغة وإكراماً لوالده زكريا عليه السلام.

واختار مريم عليها السلام صديقة حينما نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً لله.

واختار عيسى ابن مريم عليهما السلام كرامة لوالدته الصديقة فتكلم في

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٣٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٤.

المهد قائلاً: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[1].

فلماذا نستغرب حينما يختار من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله اثني عشر نقيباً، أئمة هداة ميامين، بحكمته البالغة وكرامة لأقرب الناس إلى الله سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله.

الخلق الكريم:

وقد فاضت من هذه النفس الكريمة تلك الأخلاق الحسنة التي تحدّثنا بها كتب التاريخ، أوَليس الطيب دليل الزهرة، والشعاع دليل الضياء؟ وهل الإيمان إلّا الحب، وهل دليل الحب غير تلك الأخلاق الحسنة؟

كان عليه السلام في قمة التواضع وحسن المعاشرة مع الناس هكذا ينقل إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ، قَالَ: «مَا رَأَيْتُ الرِّضَا عليه السلام جَفَا أَحَداً بِكَلِمَةٍ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُهُ قَطَعَ عَلَى أَحَدٍ كَلَامَهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ، وَمَا رَدَّ أَحَداً عَنْ حَاجَةٍ يَقْدِرُ عَلَيْهَا، وَلَا مَدَّ رِجْلَهُ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ قَطُّ، وَلَا اتَّكَأَ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُهُ شَتَمَ أَحَداً مِنْ مَوَالِيهِ وَمَمَالِيكِهِ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُهُ تَفَلَ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُهُ تَقَهْقَهَ فِي ضَحِكِهِ قَطُّ بَلْ كَانَ ضَحِكُهُ التَّبَسُّمَ.

وَكَانَ إِذَا خَلَا وَنُصِبَتْ مَائِدَتُهُ أَجْلَسَ مَعَهُ عَلَى مَائِدَتِهِ مَمَالِيكَهُ حَتَّى الْبَوَّابَ وَالسَّائِسَ. وَكَانَ عليه السلام قَلِيلَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ كَثِيرَ السَّهَرِ، يُحْيِي أَكْثَرَ لَيَالِيهِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى الصُّبْحِ. وَكَانَ كَثِيرَ الصِّيَامِ فَلَا يَفُوتُهُ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الشَّهْرِ، وَيَقُولُ ذَلِكَ صَوْمُ الدَّهْرِ. وَكَانَ عليه السلام كَثِيرَ الْمَعْرُوفِ وَالصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْهُ فِي اللَّيَالِي الْمُظْلِمَةِ.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٠.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ رَأَى مِثْلَهُ فِي فَضْلِهِ فَلَا تُصَدِّقُوه»[1].

وكان من تواضعه عليه السلام: «أنه دَخَلَ الْحَمَّامَ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ النَّاسِ: دَلِّكْنِي، فَجَعَلَ يُدَلِّكُهُ، فَعَرَّفُوهُ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَسْتَعْذِرُ مِنْهُ، وَهُوَ يُطَيِّبُ قَلْبَهُ وَيُدَلِّكُه...»[2].

ويروي رجل من أهل بلخ رافق الإمام في سفره إلى خراسان ويقول: «دَعَا يَوْماً بِمَائِدَةٍ لَهُ فَجَمَعَ عَلَيْهَا مَوَالِيَهُ مِنَ السُّودَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! لَوْ عَزَلْتَ لِهَؤُلَاءِ مَائِدَةً، فَقَالَ: مَهْ، **إِنَّ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاحِدٌ، وَالْأُمَّ وَاحِدَةٌ، وَالْأَبَ وَاحِدٌ، وَالْجَزَاءَ بِالْأَعْمَال**»[3].

وكان يكره لغلمانه أن يقوموا له احتراماً عندما يكونون على الطعام ويقول: «**إِنْ قُمْتُمْ عَلَى رُؤُوسِكُمْ وَأَنْتُمْ تَأْكُلُونَ فَلَا تَقُومُوا حَتَّى تَفْرُغُوا**»[4].

وكان عظيم الحلم والعفو. ويذكر من حلمه أن قائداً من أتباع بني العباس يسمى بـ(الجلودي) أمره هارون الرشيد بأن يذهب إلى المدينة ويسلب نساء آل أبي طالب، ولا يدع على كل واحدة منهن إلّا ثوباً واحداً، ففعل الرجل، مما أثار سخطاً عظيماً عند الإمام الرضا عليه السلام، ولكن بعد أن عُهِدَ إلى الإمام الرضا بولاية العهد عارض ذلك الجلودي ونقم من بيعة الإمام، فغضب عليه المأمون، وأخرجه يوماً ليقتله من بعد أن قتل اثنين قبله، فلما تمثل أمامه شفع له الإمام الرضا عند المأمون، وقال:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَبْ لِي هَذَا الشَّيْخ».

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩١.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩٩.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٠١.
(٤) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٠٢.

فظن الجلودي أنه يُعين عليه، فأقسم على المأمون ألّا يقبل قوله. فَقَالَ المَأْمُون: لا وَاللهِ لَا أَقْبَلُ فِيك، وأَمَرَ بضرب عُنُقِهُ[1].

وكان سخياً كريماً. وكان من آدابه في الصدقات أنه إذا جلس للأكل أُتِيَ بِصَحْفَةٍ فَتُوضَعُ قُرْبَ مَائِدَتِهِ فَيَعْمِدُ إِلَى أَطْيَبِ الطَّعَامِ مِمَّا يُؤْتَى بِهِ فَيَأْخُذُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئاً، فَيُوضَعُ فِي تِلْكَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِهَا لِلْمَسَاكِينِ، ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾[2]، ثُمَّ يَقُولُ:

«عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَقْدِرُ عَلَى عِتْقِ رَقَبَةٍ فَجَعَلَ لَهُمُ السَّبِيلَ إِلَى الجَنَّةِ بِإِطْعَامِ الطَّعَام (عبر الإطعام)»[3].

وَفَرَّقَ عليه السلام بِخُرَاسَانَ مَالَهُ كُلَّهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ: إِنَّ هَذَا لَمَغْرَمٌ، فَقَالَ عليه السلام:

«بَلْ هُوَ المَغْنَمُ، لَا تَعُدَّنَّ مَغْرَماً مَا ابْتَغْتَ بِهِ أَجْراً وَكَرَماً»[4].

وكان إذا أعطى أحداً سعى ألّا يذهب بهاؤه ولا يُراق ماء وجهه. والقصة التالية تعلمنا كيف نجعل صدقاتنا خالصة لوجه الله لا منّة فيها ولا استعلاء.

يروي الْيَسَعُ بْنِ حَمْزَةَ وَيَقُولُ: «كُنْتُ أَنَا فِي مَجْلِسِ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام أُحَدِّثُهُ، وَقَدِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ طُوَالٌ آدَمُ فَقَالَ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ، رَجُلٌ مِنْ مُحِبِّيكَ وَمُحِبِّي آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ عليهم السلام، مَصْدَرِي مِنَ الْحَجِّ وَقَدِ افْتَقَدْتُ

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ص ١٠٨ سيرة الرضا.

(٢) سورة البلد، الآية: ١١.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩٧.

(٤) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٠٠.

نَفَقَتِي وَمَا مَعِي مَا أَبْلُغُ بِهِ مَرْحَلَةً، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُنْهِضَنِي إِلَى بَلَدِي وَللهِ عَلَيَّ نِعْمَةٌ، فَإِذَا بَلَغْتُ بَلَدِي تَصَدَّقْتُ بِالَّذِي تُولِينِي عَنْكَ فَلَسْتُ مَوْضِعَ صَدَقَةٍ. فَقَالَ لَهُ: «اجْلِسْ رَحِمَكَ اللهُ»، وَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ يُحَدِّثُهُمْ حَتَّى تَفَرَّقُوا وَبَقِيَ هُوَ وَسُلَيْمَانُ الْجَعْفَرِيُّ وَخَيْثَمَةُ وَأَنَا، فَقَالَ: «أَتَأْذَنُونَ لِي فِي الدُّخُولِ؟» فَقَالَ لَهُ: سُلَيْمَانُ قَدَّمَ اللهُ أَمْرَكَ، فَقَامَ فَدَخَلَ الْحُجْرَةَ وَبَقِيَ سَاعَةً ثُمَّ خَرَجَ وَرَدَّ الْبَابَ وَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ أَعْلَى الْبَابِ وَقَالَ: «أَيْنَ الْخُرَاسَانِيُّ؟» فَقَالَ: هَا أَنَا ذَا. فَقَالَ: «خُذْ هَذِهِ الْمِائَتَيْ دِينَارٍ وَاسْتَعِنْ بِهَا فِي مَؤُونَتِكَ وَنَفَقَتِكَ، وَتَبَرَّكْ بِهَا، وَلَا تَصَدَّقْ بِهَا عَنِّي، وَاخْرُجْ فَلَا أَرَاكَ وَلَا تَرَانِي».

ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ لَقَدْ أَجْزَلْتَ وَرَحِمْتَ، فَلِمَاذَا سَتَرْتَ وَجْهَكَ عَنْهُ؟ فَقَالَ:

«مَخَافَةَ أَنْ أَرَى ذُلَّ السُّؤَالِ فِي وَجْهِهِ لِقَضَائِي حَاجَتَهُ. أَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «الْمُسْتَتِرُ بِالْحَسَنَةِ تَعْدِلُ سَبْعِينَ حِجَّةً، وَالْمُذِيعُ بِالسَّيِّئَةِ مَخْذُولٌ، وَالْمُسْتَتِرُ بِهَا مَغْفُورٌ لَهُ»، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْأَوَّلِ:

مَتَى آتِهِ يَوْماً لِأَطْلُبَ حَاجَةً
رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي وَوَجْهِي بِمَائِهِ»[1]

وقد أعطى أبا نواس ثلاثمائة درهم لم يكن عنده سواها، وقدّم إليه بغلته التي كان يمتطيها. وحينما أعطى دعبل الخزاعي ستمائة دينار اعتذر إليه.

وكان كثير الصدقة في السر، وأكثرها كان في الليالي المظلمة[2]. وكان عليه السلام مكتمل الجسم عظيم الهيبة. وكأيّن من ذي حاجة دخل

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٠١.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١٠.

عليه ليطلبها منه فشغله جلاله وهيبته عنها فبادره الإمام بقضائها، وسنذكر جانباً من ذلك عن بيان علمه.

هكذا أفاض الإمام علمه:

أربعة من أئمة الهدى تسنّى لهم نشر معارف الإسلام في الآفاق. أولهم الإمام أمير المؤمنين وآخرهم الإمام الرضا والصادقان محمد بن علي وجعفر بن محمد عليهما السلام.

وبالرغم من أن جميع أئمة الهدى نشروا العلم، إلّا أن الظروف ساعدت هؤلاء الأربعة على ذلك أكثر من الآخرين.

ولقد سبق الحديث –ببعض التفصيل– عن علم الأئمة ومصادره المتنوعة فيما سردته من حياة الإمام الباقر عليه السلام فنكتفي بذلك، وإنما نشير إلى آفاق العلم التي تناولتها أحاديث الإمام الرضا عليه السلام. ونُقِل عن اليقطيني أنه قال: «لَمَّا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَمْرِ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام جَمَعْتُ مِنْ مَسَائِلِهِ مِمَّا سُئِلَ عَنْهُ وَأَجَابَ عَنْهُ خَمْسَ عَشْرَةَ أَلْفَ مَسْأَلَةٍ»[1].

ولقد قال الإمام عليه السلام مرة: «**كُنْتُ أَجْلِسُ فِي الرَّوْضَةِ وَالْعُلَمَاءُ بِالْمَدِينَةِ مُتَوَافِرُونَ، فَإِذَا أَعْيَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَنْ مَسْأَلَةٍ أَشَارُوا إِلَيَّ بِأَجْمَعِهِمْ وَبَعَثُوا إِلَيَّ بِالْمَسَائِلِ، فَأُجِيبُ عَنْهَا**»[2].

وقد بدأ بالفتيا في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، وعمره الشريف نيف وعشرون عاماً.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩٧.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٠٠.

ولنعرف دور الإمام الرضا في هذا الحقل لابد أن نعود قليلاً إلى الوراء، لنعرف أن الحزب العباسي الذي تسلَّط على رقاب المسلمين بعد الفراغ السياسي الذي أحدثه غياب السلطة الأموية قد وجد نفسه أمام تيارات سياسية معارضة، تعتمد على الفكر، وتتسلَّح بالنظريات الثقافية، وفي طليعتها التيار العلوي الذي كان يقود المعارضة السياسية إلى جنب قيادة الساحة الفكرية، والحزب العباسي الذي كان يعيش خواءً نظريًا قاتلاً لم يجد حيلةً إلَّا البحث عن مصادر خارجية للثقافة، فشجع حركة الترجمة وتوجَّه إلى الكتب الفلسفية قبل الكتب العلمية، وبنشاط هذه الحركة حدث في الأمة اضطراب فكري وتوتر ثقافي مما أضحى يهدد وحدة الأمة.

وكانت عوامل شتى تساهم في هذا الخطر:

اولاً: انشغال المفكرين بالقضايا السياسية.

ثانياً: ازدياد الاضطراب السياسي، والحروب الداخلية التي تجر بطبيعتها الأمة إلى المزيد من التوتر الفكري.

ثالثاً: وجود تيارات غريبة عن الأمة كان هدفها إفساد ثقافة المجتمع ومحاربة الإسلام باسم الإسلام، والتي كانت تغذيها حركات سياسية متصلة بالكفار.

وفي عهد المأمون العباسي بلغ الاضطراب الفكري قمته مما دفع الإمام الرضا عليه السلام إلى التصدي لها.

وقد ساعده في ذلك انتقاله إلى حاضرة البلاد الإسلامية، وقبوله لولاية العهد؛ مما جعله في قلب الصراعات الفكرية.

وهكذا كثرت حواراته مع سائر الملل والمذاهب، مما حدا بعلمائنا الكرام إفراد كتب حول ما رُوي عنه عليه السلام، مثل ما فعل الصدوق رحمه الله

في كتابه عيون أخبار الرضا.

وحينما نتدبر في كلمات الإمام الرضا وحججه التي ألقاها على خصوم الإسلام أو مخالفي المذهب؛ نراها تتسم بمنهجية علمية عميقة. مما يدل على مستوى الثقافة في عصره لأن الأئمة -كالأنبياء عليهم السلام- إنما يُكلمون الناس على قدر عقولهم، وبمستوى أفكارهم.

كذلك نستوحي من التأمل في كلماته أنها كانت تصدُّ تشكيكات يبثها الأعداء حول الإسلام وبالذات حول عقلانية أحكامه، من هنا كثر حديثه عن علل الشرائع، والحِكَم التي وراء أحكام الدين. كما أن طائفة من كلماته المضيئة تُعالج الشؤون الحياتية مثل رسالته الطبية المعروفة بطب الرضا عليه السلام.

ومما يُميّز حياة الإمام الرضا عليه السلام العلمية أن كلماته كانت تلقى قبولاً في كافة الأوساط الإسلامية، ولعل وروده على مدينة نيسابور -التي كانت من الحواضر العلمية في العالم الإسلامي- أظهر مدى اهتمام علماء الإسلام بأحاديث الإمام عليه السلام. دعنا نستمع إلى هذه القصة الطريفة:

«لَمَّا دَخَلَ إِلَى نَيسَابُورَ فِي السَّفَرَةِ الَّتِي فَازَ فِيهَا بِفَضِيلَةِ الشَّهَادَةِ، كَانَ فِي مَهْدٍ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ عَلَيْهَا مَرْكَبٌ مِنْ فِضَّةٍ خَالِصَةٍ، فَعَرَضَ لَهُ فِي السُّوقِ الْإِمَامَانِ الْحَافِظَانِ لِلْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ أَبُو زُرْعَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ الطُّوسِيُّ رَحِمَهُمَا اللهُ، فَقَالَا: أَيُّهَا السَّيِّدُ ابْنَ السَّادَةِ، أَيُّهَا الْإِمَامُ وَابْنَ الْأَئِمَّةِ، أَيُّهَا السُّلَالَةُ الطَّاهِرَةُ الرَّضِيَّةُ، أَيُّهَا الْخُلَاصَةُ الزَّاكِيَةُ النَّبَوِيَّةُ؛ بِحَقِّ آبَائِكَ الْأَطْهَرِينَ، وَأَسْلَافِكَ الْأَكْرَمِينَ؛ إِلَّا أَرَيْتَنَا وَجْهَكَ الْمُبَارَكَ الْمَيْمُونَ، وَرَوَيْتَ لَنَا حَدِيثاً عَنْ آبَائِكَ عَنْ جَدِّكَ نَذْكُرُكَ بِهِ.

فَاسْتَوْقَفَ الْبَغْلَةَ وَرَفَعَ الْمَظَلَّةَ وَأَقَرَّ عُيُونَ الْمُسْلِمِينَ بِطَلْعَتِهِ الْمُبَارَكَةِ الْمَيْمُونَةِ، فَكَانَتْ ذُؤَابَتَاهُ كَذُؤَابَتَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ عليه السلام: حَدَّثَنِي أَبِي مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاظِمُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ شَهِيدُ أَرْضِ كَرْبَلَاءَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ شَهِيدُ أَرْضِ الْكُوفَةِ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَخِي وَابْنُ عَمِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: حَدَّثَنِي جَبْرَئِيلُ عليه السلام، قَالَ: سَمِعْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ:

«كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حِصْنِي فَمَنْ قَالَهَا دَخَلَ حِصْنِي وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي».

صَدَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَصَدَقَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام وَصَدَقَ رَسُولُ اللهِ وَالْأَئِمَّةُ عليهم السلام»[1].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٢٦ - ١٢٧.



الفصل الثاني

الإمامُ وعصرُهُ

عاش الإمام الرضا عليه السلام عصرين مختلفين، وكان عهد هارون الرشيد من أقسى العهود على آل البيت، حيث قرأنا عما في سيرة الإمام الكاظم عليه السلام كيف ضيّق العباسيون على شيعة أهل البيت، وكيف آذوا الإمام وهجّروه عن دار أمنه عند قبر جده إلى البصرة، ثم إلى بغداد حيث وضعوه إما تحت الإقامة الجبرية، وإما في قعر السجون المظلمة حتى دسُّوا له السم، فمات شهيداً مظلوماً.

وخلال السنين الأربع الأولى من عهد إمامته تجرّع الإمام كوالده غصص الألم. وهناك قصتان تعكسان طبيعة هذه الغصص:

١ - يروي أبو الصلت الهروي: «كَانَ الرِّضَا عليه السلام ذَاتَ يَوْمٍ جَالِساً فِي مَنْزِلِهِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَامَ عليه السلام فَقَالَ لِي: **«يَا أَبَا الصَّلْتِ! إِنَّهُ لَا يَدْعُونِي فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا لِدَاهِيَةٍ، فَوَاللهِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْمَلَ بِي شَيْئاً أَكْرَهُهُ لِكَلِمَاتٍ وَقَعَتْ إِلَيَّ مِنْ جَدِّي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله»**.

قَالَ فَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ الرِّضَا عليه السلام قَرَأَ هَذَا الْحِرْزَ (وذكره)، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ هَارُونُ الرَّشِيدُ وَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ! قَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَاكْتُبْ حَوَائِجَ أَهْلِكَ. فَلَمَّا وَلَّى عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى عليه السلام وَهَارُونُ يَنْظُرُ

إِلَيْهِ فِي قَفَاهُ، قَالَ: «أَرَدْتَ وَأَرَادَ اللهُ وَمَا أَرَادَ اللهُ خَيْرٌ»[1].

وقد أشار يحيى البرمكي على هارون بقتل الإمام الرضا كما أشار غيره بذلك فاستعظم الأمر، وقال: «مَا تَرَى؟! تُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَهُمْ كُلَّهُم».

٢ - والقصة الثانية تلك التي رويناها سابقاً عن دخول الجلودي على الإمام وسلبه أهله. حتى هلك هارون، وشب الخلاف بين ورثته بدأ الإمام نشاطه بقدر من الحرية النسبية.

لقد وصّى هارون لثلاثة من أبنائه بولاية العهد وهم: الأمين والمأمون والمؤتمن بالترتيب، ولمعرفته بميول العباسيين إلى الأمين الذي كانت والدته زبيدة ترعاه، خشي على المأمون الذي كان يرى فيه كفاءة أكثر لإدارة البلاد فمنحه بعض المناصب في الدولة.

وكان الفُرس -الذين كانوا لا يزالون مُتنفّذين في الدولة العباسية بالرغم من نكبة البرامكة- يميلون نحو المأمون؛ لأن أمه منهم، ولأنه تربَّى في أحضانهم.

من هنا كانت سُحُب الفتنة تتجمع في سماء الأمة، وكان هلاك هارون الرشيد في خراسان في وقت مبكر وقبل أن يرتب أوضاع البلاد، فعجّل ذلك في اشتعال نار الفتنة، كما أن مرافقة المأمون لوالده -التي جاءت، حسب بعض الروايات، بإشارة من فضل بن سهل- ساهمت فيها.

لقد سارع الأمين -وربما بإشارة من بعض قواده العباسيين- في خلع أخيه ونصب ابنه وليًا للعهد، وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون ذلك مما حدا بالأمين إلى بعث بعض قواده ليأتون به مغلولاً.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١٦.

وقد شجَّع المأمون بعض قادة جيشه ولا سيما من هم من الفرس على التمرُّد، ففعل وانتهى الأمر إلى الحرب بين الأخوين التي انتهت بخلع الأمين واستتب الأمر لأخيه.

وكانت هذه الحرب أول حرب بين العباسيين، ومن أسوأ الحروب الداخلية بين المسلمين. مما زعزع الثقة بالنظام السياسي عند الجماهير وشجَّع المعارضة على الثورة، فإذا بأطراف البلاد تنتفض وتخلع الحاكم وتبايع واحداً من العلويين.

وكانت أخطر وأعظم هذه الثورات حركة أبي السرايا في الكوفة التي قادها السَّرِيُّ بن منصور، وعقدت لواء الزعامة لواحد من أبناء الإمام الحسن المجتبى عليه السلام واسمه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل.

وانتشرت هذه حتى شملت الكوفة والواسط والبصرة والحجاز واليمن. ووقعت بينها وبين جيوش بني العباس معارك طاحنة لم يظفر العباسيون بها إلّا بالحيلة والمكر[1].

وفي مكة المكرمة ثار محمد ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام وبُويع بالخلافة ولقب بـ(أمير المؤمنين).

وكانت هناك ثورات أخرى في بلاد الشام والمغرب وكلها تدل على اضطراب الوضع السياسي، حتى أن الناس لم يبايعوا المأمون إلّا بعد أن استتب الأمر له وعاد إلى بغداد، وبعد حروب أكلت مئات الألوف من المسلمين.

وكان عصر المأمون يتميز -كما أشرنا سابقاً- بتنامي التيارات الفكرية الغريبة التي كان من شأنها زعزعة النظام الثقافي للأمة، وكانت

---

(١) راجع: التاريخ الإسلامي.. دروس وعبر (للمؤلف)، ص ٢٩٠ - ٢٩٦.

نتيجة طبيعية لحركة الترجمة التي شجّعها العباسيون من دون رؤية.

كما أن الثقة عند قيادات الجيش الذي يمثل العماد الأصلي للنظام كادت تنهار، حتى قال هرثمة بن حازم (أحد قيادات العسكر) للمأمون:

«يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تُجرِّئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك»[1].

ولعلنا نضيف إلى كل ذلك حالة المجون والترف التي اشتهرت بين رجال الدولة وبطانتهم، والتي كان يشجعها النظام لإلهائهم عن الحقائق المرة التي يعيشها المسلمون. وإذا كان آل (برمك) بالأمس أبطال هذا الميدان، فإن آل (سهل) خلفوهم فيه، وما يذكره بعض المؤرخين عن زواج الخليفة بـ(بوران) وما رافقه من مظاهر البذخ والترف شاهد على ذلك.

الإمام الرضا يتحدى الفساد:

حينما نتدبر في سورة هود أو سائر السور القرآنية التي تقص علينا رسالة الأنبياء السابقين عليهم السلام نجد أنهم يتحدون الفساد بكل ألوانه، وبالذات الفساد الذي كان مستشرياً في قومهم، ويعتبرون كل فساد سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو فكري ينتهي إلى الضلالة أو الشرك أو الكفر، وكانوا عليهم السلام يُذكِّرون الناس بالله ويحذِّرونهم عذابه في الدنيا وعقابه في الآخرة، لأن هذا هو السبيل لإصلاح الإنسان وردعه عن الفساد بكل ألوانه.

(١) تاريخ المسعودي، ج ٣، ص ٣٨٩.

وسار الأئمة عليهم السلام على طريق الأنبياء، حاربوا كل ألوان الفساد، بالوسيلة ذاتها، والإمام الرضا عليه السلام كأجداده قاد المخلصين من أبناء الأمة في هذا السبيل وتحمل الأذى في سبيل الله.

لقد رفض الاعتراف بالسلطة الجاهلية التي بناها العباسيون باسم الإسلام، واعتبرها سلطة غاصبة ظالمة فاسدة جملةً وتفصيلاً.

وناهض التيارات الفكرية المخالفة لأصول الشريعة، وقاوم الفساد الخلقي في الأمة وذلك بنشر تعاليم الدين الحنيف.

ولم يكن الإمام وحده في مواجهة ذلك الفساد العريض، بل كانت صفوة الأمة وخيرة العلماء والحكماء والقادة المخلصين، وهم شيعة أهل البيت عليهم السلام، يتبعونه في ذلك.

وقد قرأنا معاً كيف وبأي أسلوب كان الأئمة يقودون الأمة، ولكن هنا ينبغي أن نتحدث قليلاً عما أثار التساؤل عند المؤرخين، وهي نقطةٌ مضيئةٌ -في رأينا- تلمع في حياة الإمام الرضا عليه السلام، ومنعطف أساسي في حركة الشيعة، وهي قبول الإمام عليه السلام بولاية عهد المأمون.

وقبل كل شيء نتساءل عن الأسباب التي دفعت الخليفة العباسي للإقدام على هذه الخطوة الجريئة.

المأمون يتقرب للإمام:

والمأمون الذي ولد من أمّ فارسية، وتربّى في حجر المؤيدين للبيت العلوي، وعرف الكثير من تاريخ الإسلام وتبحّر في علم الكلام، هل كان شيعيًا فعلاً؟ وهل كان عهده إلى الإمام الرضا عليه السلام بدافع سليم، ثم انقلب عن ذلك ودسّ السم إلى الإمام لأن الملك -كما قال والده هارون له يوماً- عقيم وأنه لو نازعه فيه لأخذ الذي فيه عيناه؟

أم كانت خطة دبرها الفضل بن سهل وغيره من بطانته ووقع فيها من دون التفات، ثم عاد عنها وقتل الفضل غيلة في الحمام وقضى على الإمام بالسم؟

أم أنها كانت خطته اشترك فيها هو وغيره من القادة، وكانت مجرد لعبة سياسية؟

كل ذلك ممكن! ولم أجد فيما اطلعت عليه من التاريخ ما يدل على واحد من الاحتمالات بالتأكيد، على أني أميل إلى الاعتراف بكل العوامل التاريخية، وآخذها بعين الاعتبار عند تفسير ظاهرة معينة، لأن مثل هذه العوامل تتفاعل مع بعضها في حياتنا وتصنع من حيث المجموع حياتنا الحاضرة، فلماذا لا نعتقد أن الماضي كالحاضر تصنعه كل العوامل المؤثرة في حياة البشر؟

من هنا أميل إلى الرأي التالي: أن كلًا من خلفية المأمون الثقافية، والظروف السياسية، ورأي بطانته، أثَّرت في الإقدام على هذه الخطوة الجريئة، ولولا واحدة منها لم يقدم.

وهذا يعني أن انقلاب المأمون على الإمام الرضا عليه السلام جاء بعد تحول الظروف السياسية، وأن الرجل لم يكن شيعيًا بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهو اتّباع أهل البيت عليهم السلام، والتعبد لله في طاعتهم، إنما كان متأثراً ببعض الأفكار الشيعية كتفضيل أمير المؤمنين عليه السلام على غيره من الخلفاء، والاعتقاد بخيانة معاوية، وبأن القرآن كتاب محدث وما أشبه.

إلّا أن ذلك لا يجعل الفرد شيعيًا في نظر الأئمة عليهم السلام، وهو بالتالي كان صاحب سلطة يبحث عنها أكثر مما يبحث عن المبادئ والقيم.

ولعل والده هارون كان يشير إلى ابنه وإلى خواصّ أهل بيته كما

يشير الطغاة عادة إلى بطانتهم من الاعتراف بحق معارضيهم، وذلك عندما تستيقظ ضمائرهم ولو لفترة محدودة. وهكذا يروي المأمون أنه إنما تشيّع على يد والده.

وقد أسرّ المأمون إلى بعض خواصه بالسبب الذي دعاه إلى هذا الأمر، فعن الرَّيَّانِ بْنِ الصَّلْتِ قَالَ: «أَكْثَرَ النَّاسُ فِي بَيْعَةِ الرِّضَا عليه السلام مِنَ الْقُوَّادِ وَالْعَامَّةِ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ، وَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ تَدْبِيرِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ذِي الرِّئَاسَتَيْنِ، فَبَلَغَ الْمَأْمُونَ ذَلِكَ فَبَعَثَ إِلَيَّ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصِرْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَيَّانُ! بَلَغَنِي أَنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّ بَيْعَةَ الرِّضَا عليه السلام كَانَتْ مِنْ تَدْبِيرِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! يَقُولُونَ هَذَا، قَالَ: وَيْحَكَ يَا رَيَّانُ! أَيَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَجِيءَ إِلَى خَلِيفَةٍ قَدِ اسْتَقَامَتْ لَهُ الرَّعِيَّةُ وَالْقُوَّادُ وَاسْتَوَتْ لَهُ الْخِلَافَةُ فَيَقُولَ لَهُ: ادْفَعِ الْخِلَافَةَ مِنْ يَدِكَ إِلَى غَيْرِكَ، أَيَجُوزُ هَذَا فِي الْعَقْلِ؟ قُلْتُ لَهُ: لَا وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَجْسُرُ عَلَى هَذَا أَحَدٌ، قَالَ: لَا وَاللهِ مَا كَانَ كَمَا يَقُولُونَ، وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكَ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

أَنَّهُ لَمَّا كَتَبَ إِلَيَّ مُحَمَّدٌ أَخِي يَأْمُرُنِي بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ فَأَبَيْتُ عَلَيْهِ، عَقَدَ لِعَلِيِّ بْنِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَأَمَرَهُ أَنْ يُقَيِّدَنِي بِقَيْدٍ وَيَجْعَلَ الْجَامِعَةَ فِي عُنُقِي، فَوَرَدَ عَلَيَّ بِذَلِكَ الْخَبَرُ وَبَعَثْتُ هَرْثَمَةَ بْنَ أَعْيَنَ إِلَى سِجِسْتَانَ وَكِرْمَانَ وَمَا وَالاهُمَا، فَأَفْسَدَ عَلَيَّ أَمْرِي وَانْهَزَمَ هَرْثَمَةُ، وَخَرَجَ صَاحِبُ السَّرِيرِ وَغَلَبَ عَلَى كُوَرِ خُرَاسَانَ مِنْ نَاحِيَتِهِ، فَوَرَدَ عَلَيَّ هَذَا كُلُّهُ فِي أُسْبُوعٍ.

فَلَمَّا وَرَدَ ذَلِكَ عَلَيَّ لَمْ يَكُنْ لِي قُوَّةٌ بِذَلِكَ، وَلَا كَانَ لِي مَالٌ أَتَقَوَّى بِهِ، وَرَأَيْتُ مِنْ قُوَّادِي وَرِجَالِي الْفَشَلَ وَالْجُبْنَ أَرَدْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِمَلِكِ كَابُلَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَلِكُ كَابُلَ رَجُلٌ كَافِرٌ وَيَبْذُلُ مُحَمَّدٌ لَهُ الْأَمْوَالَ فَيَدْفَعُنِي إِلَى يَدِهِ، فَلَمْ أَجِدْ وَجْهاً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَتُوبَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

مِنْ ذُنُوبِي وَأَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ، وَأَسْتَجِيرَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمَرْتُ بِهَذَا الْبَيْتِ -وَأَشَارَ إِلَى بَيْتٍ- تُكْنَسُ وَصَبَبْتُ عَلَيَّ الْمَاءَ، وَلَبِسْتُ ثَوْبَيْنِ أَبْيَضَيْنِ، وَصَلَّيْتُ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ قَرَأْتُ فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا حَضَرَنِي، وَدَعَوْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَجَرْتُ بِهِ وَعَاهَدْتُهُ عَهْداً وَثِيقاً بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ، إِنْ أَفْضَى اللهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَيَّ وَكَفَانِي عَادِيَتَهُ وَهَذِهِ الْأُمُورَ الْغَلِيظَةَ أَنْ أَضَعَ هَذَا الْأَمْرَ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ.

ثُمَّ قَوِيَ فِيهِ قَلْبِي، فَبَعَثْتُ طَاهِراً إِلَى عَلِيِّ بْنِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، وَرَدَدْتُ هَرْثَمَةَ إِلَى رَافِعِ بْنِ أَعْيَنَ فَظَفِرَ بِهِ وَقَتَلَهُ، وَبَعَثْتُ إِلَى صَاحِبِ السَّرِيرِ فَهَادَنْتُهُ وَبَذَلْتُ لَهُ شَيْئاً حَتَّى رَجَعَ، فَلَمْ يَزَلْ أَمْرِي يَقْوَى حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ مَا كَانَ، وَأَفْضَى اللهُ إِلَيَّ بِهَذَا الْأَمْرِ وَاسْتَوَى لِي.

فَلَمَّا وَافَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِي بِمَا عَاهَدْتُهُ عَلَيْهِ أَحْبَبْتُ أَنْ أَفِيَ للهِ تَعَالَى بِمَا عَاهَدْتُهُ، فَلَمْ أَرَ أَحَداً أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام فَوَضَعْتُهَا فِيهِ، فَلَمْ يَقْبَلْهَا إِلَّا عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ فَهَذَا كَانَ سَبَبَهَا»[1].

ولعل هذا السبب كان أيضاً من الدواعي المساعدة إلّا أن أبرز العوامل التي دفعته إلى ذلك كانت الظروف السياسية التي أشرنا إليها حيث كانت علاقته بالعباسيين سيئة لقتله أخاه أميناً، كما أن القيادات العربية لم تكن راضية عنه بسبب تفضيله الصارخ للقيادات الفارسية، أما أنصار البيت العلوي فقد رأوا ووجدوا الفرصة مؤاتية للانتقام من السلطة العباسية الغاشمة، وانتفضوا في كل مصر. فماذا بقي له من فرص الاستمرار في السلطة؟

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٣٧ - ١٣٨.

ولكن محصلة خطط المأمون، والأقدار التي أجرت الرياح في اتجاهه كانت التالية:

١ - اكتساب ود أنصار البيت العلوي باستقدام الإمام الرضا عليه السلام لولاية عهده.

٢ - تصفية لكثير من الثورات بالأعمال العسكرية وبقدر من السماحة والعطاء.

٣ - الالتفاف على العباسيين واكتساب ودّهم والعودة إلى خطهم، بعد تصفية الفضل بن سهل، وشهادة الإمام الرضا عليه السلام.

وهكذا تسنى للمأمون أن يستمر في الحكم وأن يحافظ على العرش العباسي من بعده.

الإمام يستجيب للتحدّي:

لماذا قبل الإمام الرضا عليه السلام ولاية عهد المأمون، وإذا كان مضطراً إلى ذلك فكيف استجاب لتحديه؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال لابد أن نُلقي نظرة إلى واقع الحركة الرسالية عندما تولى الرضا مركز الإمامة من بعد والده الإمام الكاظم عليه السلام.

في حديث شريف: كان من المقدر أن يكون الإمام موسى بن جعفر هو قائم آل محمد صلى الله عليه وآله إلّا أن الشيعة أذاعوا الأمر فبدا لله فتأخر إلى أجل غير مسمى.

وهذا يعني أن الحركة الرسالية كادت تبلغ يومئذ إلى مستوى التصدي لشؤون الأمة. وبالرغم من أن الإمام الكاظم عليه السلام قضى نحبه في سجن هارون مسموماً، إلّا أن الحركة لم تُصَبْ بأذى كثير كما نستفيد ذلك من حديث شريف.

وهكذا كانت إمامة الإمام الرضا عليه السلام واحدة من فرصتين:

الأولى: القيام بحركة مسلحة قد تنتهي إلى دمار الحركة.

الثانية: الاستجابة لتحدي المأمون بقبول ولاية العهد للعمل من خلال السلطة دون إعطاء شرعية لها، كما فعل النبي يوسف حينما طلب من عزيز مصر أن يجعله على خزائن الأرض، ثم قام بما استطاع إليه سبيلاً، من الإصلاح من داخل النظام.

وكما فعل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع الخلفاء الذين سبقوه عندما قبل بالدخول في الشورى واحداً من ستة أعضاء.

وأقل ما في هذه الفرصة الثانية أنها تشكل حماية للحركة الرسالية من التصفية، والقبول بها حركةً معارضةً رسميةً.

وهكذا نعرف أن الإمام لم يترك قيادته للحركة الرسالية، بل استفاد من مركزه الجديد، كما استفاد الشيعة لدعم مسيرة حركتهم الرسالية التي فرضت نفسها على النظام فرضاً.

ولتحقيق هذه الغايات اتبع الإمام عليه السلام النهج التالي:

أولاً: امتنع عن قبول الخلافة التي عرضها عليه المأمون أولاً، ولعل السبب في رفض الخلافة كان أمرين:

ألف: إن تلك الخلافة كانت ثوباً خاصاً بأمثال المأمون، وإنها لا تليق بحجة الله البالغة، لأن بناءها كان قائماً على أساس فاسد. جيشها ونظامها وقوانينها وكل شيء فيها، ولو قبل الإمام بها كان عليه أن يهدمها ويبنيها من جديد ولم يكن ذلك أمراً ممكناً في تلك الظروف.

بـــاء: إن المأمون لم يكن صادقاً في عرضه، فهو كان يدبر حيلة مع حزبه الماكر للإيقاع بالإمام إن قبل، بعد أخذ الشرعية منه، كما فعل بالنسبة إلى ولاية العهد.

ثانياً: اشترط في قبوله لولاية العهد ألّا يتدخل في شؤون الدولة من قريب أو بعيد، مما أفقدهم القدرة على تمشية الأمور باسم الإمام وكسب الشرعية له، وأبان للعالمين -ذلك اليوم وللتاريخ إلى الأبد- أنه لا يعترف بشرعية النظام بأي وجه. وقد حاول المأمون مراراً أن يستدرج الإمام للتدخل في الشؤون فلم يقبل، والحديث التالي يدل على ذلك:

«إِنَّ الْمَأْمُونَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِلرِّضَا عليه السلام بِوِلَايَةِ الْعَهْدِ وَلِلْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ بِالْوِزَارَةِ، أَمَرَ بِثَلَاثَةِ كَرَاسِيَ فَنُصِبَتْ لَهُمْ، فَلَمَّا قَعَدُوا عَلَيْهَا أَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا يُبَايِعُونَ فَكَانُوا يُصَفِّقُونَ بِأَيْمَانِهِمْ عَلَى أَيْمَانِ الثَّلَاثَةِ مِنْ أَعْلَى الْإِبْهَامِ إِلَى الْخِنْصِرِ وَيَخْرُجُونَ، حَتَّى بَايَعَ فِي آخِرِ النَّاسِ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَصَفَّقَ بِيَمِينِهِ مِنَ الْخِنْصِرِ إِلَى أَعْلَى الْإِبْهَامِ، فَتَبَسَّمَ أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام، ثُمَّ قَالَ:

«**كُلُّ مَنْ بَايَعَنَا بَايَعَ بِفَسْخِ الْبَيْعَةِ غَيْرَ هَذَا الْفَتَى فَإِنَّهُ بَايَعَنَا بِعَقْدِهَا**».

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: وَمَا فَسْخُ الْبَيْعَةِ مِنْ عَقْدِهَا؟

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «**عَقْدُ الْبَيْعَةِ هُوَ مِنْ أَعْلَى الْخِنْصِرِ إِلَى أَعْلَى الْإِبْهَامِ، وَفَسْخُهَا مِنْ أَعْلَى الْإِبْهَامِ إِلَى أَعْلَى الْخِنْصِرِ**».

قَالَ: فَمَاجَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، وَأَمَرَ الْمَأْمُونُ بِإِعَادَةِ النَّاسِ إِلَى الْبَيْعَةِ عَلَى مَا وَصَفَهُ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام، وَقَالَ النَّاسُ: كَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْإِمَامَةَ مَنْ لَا يَعْرِفُ عَقْدَ الْبَيْعَةِ، إِنَّ مَنْ عَلِمَ لَأَوْلَى بِهَا مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ، قَالَ: فَحَمَلَهُ

ذلك على ما فعله من سمه»[1].

ثالثاً: منذ الأيام الأولى لولايته للعهد انتهز الإمام كل فرصة ممكنة لنشر بصائر الوحي، وأظهر أنه أحق بالخلافة من غيره، فمثلاً نقرأ في وثيقة ولايته للعهد ما يدل على أن المأمون إنما عمل بواجبه في الاحتفاء بأهل بيت الرسالة. دعنا نقرأ ونتدبر معاً الوثيقة التالية:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الحَمْدُ للهِ الْفَعَّالِ لِمَا يَشَاءُ، لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلا رَادَّ لِقَضَائِهِ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

أَقُولُ وَأَنَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَضَدَهُ اللهُ بِالسَّدَادِ وَوَفَّقَهُ لِلرَّشَادِ، عَرَفَ مِنْ حَقِّنَا مَا جَهِلَهُ غَيْرُهُ، فَوَصَلَ أَرْحَاماً قُطِعَتْ، وَآمَنَ نُفُوساً فَزِعَتْ، بَلْ أَحْيَاهَا وَقَدْ تَلِفَتْ، وَأَغْنَاهَا إِذِ افْتَقَرَتْ؛ مُبْتَغِياً رِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا يُرِيدُ جَزَاءً مِنْ غَيْرِهِ، وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ وَلا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

وَإِنَّهُ جَعَلَ إِلَيَّ عَهْدَهُ وَالْإِمْرَةَ الْكُبْرَى إِنْ بَقِيتُ بَعْدَهُ، فَمَنْ حَلَّ عُقْدَةً أَمَرَ اللهُ بِشَدِّهَا وَقَصَمَ عُرْوَةً أَحَبَّ اللهُ إِيثَاقَهَا فَقَدْ أَبَاحَ حَرِيمَهُ وَأَحَلَّ مُحَرَّمَهُ؛ إِذْ كَانَ بِذَلِكَ زَارِياً عَلَى الْإِمَامِ مُنْتَهِكاً حُرْمَةَ الْإِسْلَامِ. بِذَلِكَ جَرَى السَّالِفُ، فَصَبَرَ مِنْهُ عَلَى الْفَلَتَاتِ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ بَعْدَهَا عَلَى الْعَزَمَاتِ، خَوْفاً عَلَى شَتَاتِ الدِّينِ وَاضْطِرَابِ حَبْلِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِقُرْبِ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَرَصَدِ فُرْصَةٍ تُنْتَهَزُ وَبَائِقَةٍ تُبْتَدَرُ.

وَقَدْ جَعَلْتُ للهِ عَلَى نَفْسِي -إِنِ اسْتَرْعَانِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَقَلَّدَنِي خِلَافَتَهُ- الْعَمَلَ فِيهِمْ عَامَّةً وَفِي بَنِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤٤.

بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله، وَأَلَّا أَسْفِكَ دَماً حَرَاماً، وَلا أُبِيحَ فَرْجاً وَلا مَالاً إِلَّا مَا سَفَكَتْهُ حُدُودُهُ وَأَبَاحَتْهُ فَرَائِضُهُ. وَأَنْ أَتَخَيَّرَ الْكُفَاةَ جُهْدِي وَطَاقَتِي، وَجَعَلْتُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِي عَهْداً مُؤَكَّداً يَسْأَلُنِي اللهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[1].

وَإِنْ أَحْدَثْتُ أَوْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ كُنْتُ لِلْغِيَرِ مُسْتَحِقّاً وَلِلنَّكَالِ مُتَعَرِّضاً، وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ، وَإِلَيْهِ أَرْغَبُ فِي التَّوْفِيقِ لِطَاعَتِهِ وَالْحَوْلِ بَيْنِي وَبَيْنَ مَعْصِيَتِهِ فِي عَافِيَةٍ لِي وَلِلْمُسْلِمِينَ.

وَالْجَامِعَةُ وَالْجَفْرُ يَدُلَّانِ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ، وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ.

لَكِنِّي امْتَثَلْتُ أَمْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَآثَرْتُ رِضَاهُ، وَاللهُ يَعْصِمُنِي وَإِيَّاهُ، وَأَشْهَدْتُ اللهَ عَلَى نَفْسِي بِذَلِكَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً»[2].

وهناك بصائر نستوحيها من كلمات الرضا المضيئة:

أولاً: قوله عليه السلام: «**عَرَفَ مِنْ حَقِّنَا مَا جَهِلَهُ غَيْرُهُ... إلخ**». حيث عرّض بهارون والد المأمون، وبالنظام العباسي كله، الذين لم يرعوا حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثانياً: إنه قال: «**فَمَنْ حَلَّ عُقْدَةً أَمَرَ اللهُ بِشَدِّهَا... إلخ**»، إشارة إلى خبث السرائر، وحبك المؤامرات ضد الولاية.

ثالثاً: قوله: «**بِذَلِكَ جَرَى السَّالِفُ... إلى آخره**»، لعله إشارة إلى سكوت الإمام أمير المؤمنين عن جهة أو صبر الأئمة على الأذى خوفاً على شتات الدين واضطراب حبل المسلمين.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٥٢ - ١٥٣.

رابعاً: ثم بيان برنامجه للحكم الذي يخالف ما كان عليه عامة بني العباس، وبضمنهم المأمون ذاته.

خامساً: وقال أخيراً: «**وَالجَامِعَةُ وَالجَفْرُ يَدُلَّانِ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ**»، حيث بيّن بذلك أنهم أصحاب علم رسول الله ﷺ، وأنهم أحق بالأمر منهم.

وعندما تهيّأ الناس للبيعة لفت الإمام نظره إلى أن طريقتهم للبيعة خاطئة مما أثار زوبعة في الناس. دعنا نستمع إلى الحديث التالي الذي جرى بين المأمون والإمام عليه السلام:

"يَا أَبَا الْحَسَنِ! انْظُرْ بَعْضَ مَنْ تَثِقُ بِهِ تُوَلِّيهِ هَذِهِ الْبُلْدَانَ الَّتِي قَدْ فَسَدَتْ عَلَيْنَا، فَقُلْتُ لَهُ: **تَفِي لِي وَأَفِي لَكَ، فَإِنِّي إِنَّمَا دَخَلْتُ فِيمَا دَخَلْتُ عَلَى أَنْ لَا آمُرَ فِيهِ وَلَا أَنْهَى وَلَا أَعْزِلَ وَلَا أُوَلِّيَ وَلَا أُسَيِّرَ حَتَّى يُقَدِّمَنِي اللهُ قَبْلَكَ، فَوَاللهِ إِنَّ الْخِلَافَةَ لَشَيْءٌ مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسِي، وَلَقَدْ كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ أَتَرَدَّدُ فِي طُرُقِهَا عَلَى دَابَّتِي، وَإِنَّ أَهْلَهَا وَغَيْرَهُمْ يَسْأَلُونَنِي الْحَوَائِجَ فَأَقْضِيهَا لَهُمْ، فَيَصِيرُونَ كَالْأَعْمَامِ لِي، وَإِنَّ كُتُبِي لَنَافِذَةٌ فِي الْأَمْصَارِ، وَمَا زِدْتَنِي فِي نِعْمَةٍ هِيَ عَلَيَّ مِنْ رَبِّي**، فَقَالَ: أَفِي لَكَ"[1].

وكانت من أعظم ما بيّن فضل الإمام، مجالس المحاجّة التي كان يعقدها بين فترة وأخرى. ولنستعرض معاً واحداً من هذه المجالس لنرى ماذا يدور فيها:

«قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَبَيْنَا نَحْنُ فِي حَدِيثٍ لَنَا عِنْدَ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا يَاسِرٌ، وَكَانَ يَتَوَلَّى أَمْرَ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام فَقَالَ: يَا سَيِّدِي! إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: فِدَاكَ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤٤.

أَخُوكَ! إِنَّهُ اجْتَمَعَ إِلَيَّ أَصْحَابُ المَقَالاتِ وَأَهْلُ الأَدْيانِ وَالمُتَكَلِّمُونَ مِنْ جَمِيعِ المِلَلِ فَرَأْيُكَ فِي الْبُكُورِ عَلَيْنَا إِنْ أَحْبَبْتَ كَلامَهُمْ، وَإِنْ كَرِهْتَ ذَلِكَ فَلا تَتَجَشَّمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْكَ خَفَّ ذَلِكَ عَلَيْنَا، فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «**أَبْلِغْهُ السَّلامَ وَقُلْ لَهُ: قَدْ عَلِمْتُ مَا أَرَدْتَ وَأَنَا صَائِرٌ إِلَيْكَ بُكْرَةً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى**»[1].

ثم بيّن الإمام ما يدل على أن هدف المأمون من تشكيل مثل هذه المجالس، النيل من قدر الإمام حيث يظن أنه قد يتوقف عن محاجة خصومه ولكن الإمام قال للنوفلي (الراوي): «**يَا نَوْفَلِيُّ! أَتُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ مَتَى يَنْدَمُ المَأْمُونُ؟** قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: **إِذَا سَمِعَ احْتِجَاجِي عَلَى أَهْلِ التَّوْرَاةِ بِتَوْرَاتِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ الإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ الزَّبُورِ بِزَبُورِهِمْ، وَعَلَى الصَّابِئِينَ بِعِبْرَانِيَّتِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ الهَرَابِذَةِ بِفَارِسِيَّتِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ الرُّومِ بِرُومِيَّتِهِمْ، وَعَلَى أَصْحَابِ المَقَالاتِ بِلُغَاتِهِمْ. فَإِذَا قَطَعْتُ كُلَّ صِنْفٍ وَدَحَضْتُ حُجَّتَهُ وَتَرَكَ مَقَالَتَهُ وَرَجَعَ إِلَى قَوْلِي عَلِمَ المَأْمُونُ أَنَّ المَوْضِعَ الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُ النَّدَامَةُ مِنْهُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ**»[2].

ثم بيّن الحديث -بعد هذا الكلام- وضع الجلسة وقال: «فَلَمَّا دَخَلَ الرِّضَا عليه السلام قَامَ المَأْمُونُ وَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ وَجَمِيعُ بَنِي هَاشِمٍ، فَمَا زَالُوا وُقُوفاً وَالرِّضَا عليه السلام جَالِسٌ مَعَ المَأْمُونِ، حَتَّى أَمَرَهُمْ بِالْجُلُوسِ فَجَلَسُوا، فَلَمْ يَزَلِ المَأْمُونُ مُقْبِلاً عَلَيْهِ يُحَدِّثُهُ سَاعَةً، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْجَاثَلِيقِ فَقَالَ: يَا جَاثَلِيقُ! هَذَا ابْنُ عَمِّي عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، وَهُوَ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ بِنْتِ نَبِيِّنَا وَابْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، فَأُحِبُّ أَنْ تُكَلِّمَهُ وَتُحَاجَّهُ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٧٤.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٧٥.

وَتُنْصِفَهُ، فَقَالَ الْجَاثَلِيقُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! كَيْفَ أُحَاجُّ رَجُلاً يَحْتَجُّ عَلَيَّ بِكِتَابٍ أَنَا مُنْكِرُهُ وَنَبِيٍّ لَا أُؤْمِنُ بِهِ؟ فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **يَا نَصْرَانِيُّ فَإِنِ احْتَجَجْتُ عَلَيْكَ بِإِنْجِيلِكَ أَتُقِرُّ بِهِ؟**

قَالَ الْجَاثَلِيقُ: وَهَلْ أَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ مَا نَطَقَ بِهِ الْإِنْجِيلُ؟، نَعَمْ وَاللهِ أُقِرُّ بِهِ عَلَى رَغْمِ أَنْفِي.

ثُمَّ قَرَأَ الرِّضَا عليه السلام عَلَيْهِ الْإِنْجِيلَ وَأَثْبَتَ عَلَيْهِ أَنَّ نَبِيَّنَا صلى الله عليه وآله مَذْكُورٌ فِيهِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِعَدَدِ حَوَارِيِّ عِيسَى عليه السلام وَأَحْوَالِهِمْ، وَاحْتَجَّ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ أَقَرَّ بِهَا، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ شَعْيَا وَغَيْرَهُ، إِلَى أَنْ قَالَ الْجَاثَلِيقُ: لِيَسْأَلْكَ غَيْرِي فَلَا وَحَقِّ الْمَسِيحِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ فِي عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَكَ، فَالْتَفَتَ الرِّضَا عليه السلام إِلَى رَأْسِ الْجَالُوتِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِالتَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ وَكِتَابِ شَعْيَا وَحَيْقُوقَ، حَتَّى أُفْحِمَ وَلَمْ يُحِرْ جَوَاباً.

ثُمَّ دَعَا عليه السلام بِالْهِرْبِذِ الْأَكْبَرِ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَطَعَ هِرْبِذُ مَكَانَهُ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **يَا قَوْمِ! إِنْ كَانَ فِيكُمْ أَحَدٌ يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ فَلْيَسْأَلْ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ؟**

فَقَامَ إِلَيْهِ عِمْرَانُ الصَّابِي، وَكَانَ وَاحِداً فِي الْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ: يَا عَالِمَ النَّاسِ! لَوْلَا أَنَّكَ دَعَوْتَ إِلَى مَسْأَلَتِكَ لَمْ أُقْدِمْ عَلَيْكَ بِالْمَسَائِلِ، فَلَقَدْ دَخَلْتُ الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَالشَّامَ وَالْجَزِيرَةَ وَلَقِيتُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَلَمْ أَقَعْ عَلَى أَحَدٍ يُثْبِتُ لِي وَاحِداً لَيْسَ غَيْرُهُ قَائِماً بِوَحْدَانِيَّتِهِ، أَفَتَأْذَنُ أَنْ أَسْأَلَكَ؟

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: **إِنْ كَانَ فِي الْجَمَاعَةِ عِمْرَانُ الصَّابِي فَأَنْتَ هُوَ**، قَالَ: أَنَا هُوَ، قَالَ: **سَلْ يَا عِمْرَانُ! وَعَلَيْكَ بِالنَّصَفَةِ وَإِيَّاكَ وَالْخَطَلَ وَالْجَوْرَ**، فَقَالَ: وَاللهِ يَا سَيِّدِي مَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ تُثْبِتَ لِي شَيْئاً أَتَعَلَّقُ بِهِ فَلَا

أَجُوزُهُ، قَالَ: **سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ.**

فَازْدَحَمَ النَّاسُ وَانْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَاحْتَجَّ الرِّضَا عليه السلام عَلَيْهِ وَطَالَ الكَلَامُ بَيْنَهُمَا إِلَى الزَّوَالِ، فَالْتَفَتَ الرِّضَا عليه السلام إِلَى المَأْمُونِ فَقَالَ: **الصَّلَاةُ قَدْ حَضَرَتْ**، فَقَالَ عِمْرَانُ: يَا سَيِّدِي! لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ مَسْأَلَتِي فَقَدْ رَقَّ قَلْبِي، قَالَ الرِّضَا عليه السلام: **نُصَلِّي وَنَعُودُ**، فَنَهَضَ وَنَهَضَ المَأْمُونُ، فَصَلَّى الرِّضَا عليه السلام دَاخِلًا وَصَلَّى النَّاسُ خَارِجًا خَلْفَ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ، ثُمَّ خَرَجَا فَعَادَ الرِّضَا عليه السلام إِلَى مَجْلِسِهِ وَدَعَا بِعِمْرَانَ فَقَالَ: **سَلْ يَا عِمْرَانُ**، فَسَأَلَهُ عَنِ الصَّانِعِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ، وَأُجِيبَ إِلَى أَنْ قَالَ: **أَفَهِمْتَ يَا عِمْرَانُ؟** قَالَ: نَعَمْ يَا سَيِّدِي قَدْ فَهِمْتُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى مَا وَصَفْتَ وَوَحَّدْتَ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ المَبْعُوثُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ، ثُمَّ خَرَّ سَاجِداً نَحْوَ القِبْلَةِ، وَأَسْلَمَ.

قَالَ الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَلَمَّا نَظَرَ المُتَكَلِّمُونَ إِلَى كَلَامِ عِمْرَانَ الصَّابِي، وَكَانَ جَدِلًا لَمْ يَقْطَعْهُ عَنْ حُجَّتِهِ أَحَدٌ قَطُّ؛ لَمْ يَدْنُ مِنَ الرِّضَا عليه السلام أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَمْ يَسْأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ، وَأَمْسَيْنَا فَنَهَضَ المَأْمُونُ وَالرِّضَا عليه السلام فَدَخَلَا، وَانْصَرَفَ النَّاسُ، وَكُنْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِنَا إِذْ بَعَثَ إِلَيَّ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ لِي: يَا نَوْفَلِيُّ! أَمَا رَأَيْتَ مَا جَاءَ بِهِ صَدِيقُكَ لَا وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى خَاضَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا قَطُّ، وَلَا عَرَفْنَاهُ بِهِ إِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِالمَدِينَةِ أَوْ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ الكَلَامِ، قُلْتُ: قَدْ كَانَ الحَاجُّ يَأْتُونَهُ فَيَسْأَلُونَهُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ حَلَالِهِمْ وَحَرَامِهِمْ، فَيُجِيبُهُمْ وَرُبَّمَا كَلَّمَ مَنْ يَأْتِيهِ يُحَاجُّهُ.

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْسُدَهُ هَذَا الرَّجُلُ فَيَسُمَّهُ أَوْ يَفْعَلَ بِهِ بَلِيَّةً، فَأَشِرْ عَلَيْهِ بِالإِمْسَاكِ عَنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، قُلْتُ: إِذاً لَا يَقْبَلُ مِنِّي، وَمَا أَرَادَ الرَّجُلُ إِلَّا امْتِحَانَهُ لِيَعْلَمَ هَلْ عِنْدَهُ

شيءٌ مِنْ عُلُومِ آبائِهِ عليهم السلام، فقال لي: قُلْ لَهُ: إنَّ عمَّكَ قَدْ كَرِهَ هذا البابَ وأحبَّ أنْ تُمْسِكَ عَنْ هذِهِ الأشْياءِ لِخِصالٍ شَتَّى.

فَلَمَّا انْقَلَبْتُ إلى مَنْزِلِ الرِّضا عليه السلام أخْبَرْتُهُ بِما كانَ مِنْ عمِّهِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ فتَبَسَّمَ، عليه السلام ثُمَّ قالَ:

«**حَفِظَ اللهُ عَمِّي، مَا أعْرَفَنِي بِهِ لِمَ كَرِهَ ذَلِكَ، يَا غُلَامُ! صِرْ إِلَى عِمْرَانَ الصَّابِي فَأْتِنِي بِهِ**».

فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِداكَ! أنا أعْرِفُ مَوْضِعَهُ وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ إخْوانِنا مِنَ الشِّيعَةِ، قَالَ: **فَلَا بَأْسَ، قَرِّبُوا إِلَيْهِ دَابَّةً**. فَصِرْتُ إلى عِمْرانَ فَأتَيْتُهُ بِهِ فَرَحَّبَ بِهِ، وَدَعا بِكِسْوَةٍ فَخَلَعَها عَلَيْهِ وَحَمَلَهُ وَدَعا بِعَشْرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ فَوَصَلَهُ بِها.

فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِداكَ! حَكَيْتَ فِعْلَ جَدِّكَ أميرِ المُؤْمِنينَ عليه السلام، قالَ: **هَكَذَا يَجِبُ**. ثُمَّ دَعا عليه السلام بِالعَشاءِ فَأجْلَسَني عَنْ يَمينِهِ وَأجْلَسَ عِمْرانَ عَنْ يَسارِهِ، حَتَّى إذا فَرَغْنا قالَ لِعِمْرانَ: **انْصَرِفْ مُصَاحِباً وَبَكِّرْ عَلَيْنَا نُطْعِمْكَ طَعَامَ المَدِينَةِ**، فَكانَ عِمْرانُ بَعْدَ ذَلِكَ يَجْتَمِعُ إلَيْهِ المُتَكَلِّمُونَ مِنْ أصْحابِ المَقالاتِ فَيُبْطِلُ أمْرَهُمْ، حَتَّى اجْتَنَبُوهُ، وَوَصَلَهُ المَأْمُونُ بِعَشْرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ، وَأعْطاهُ الفَضْلُ مالاً، وَحَمَلَهُ وَوَلَّاهُ الرِّضا عليه السلام صَدَقاتِ بَلْخٍ فَأصابَ الرَّغائِبَ»[1].

وقصة استعداد الإمام لصلاة العيد التي أرهبت النظام دليل آخر على أن الإمام لم يترك فرصة إلّا واستفاد منها لإعلان دعوته، وبيان أنه الأحق بالخلافة من البيت العباسي.

«لَمَّا حَضَرَ العِيدُ بَعَثَ المَأْمُونُ إلى الرِّضا عليه السلام يَسْأَلُهُ أنْ يَرْكَبَ وَيَحْضُرَ العِيدَ وَيَخْطُبَ؛ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُ النَّاسِ وَيَعْرِفُوا فَضْلَهُ وَتَقِرَّ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٧٥.

قُلُوبُهُم عَلَى هذِهِ الدَّوْلَةِ المُبَارَكَةِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الرِّضَا عليه السلام وَقَالَ: **قَدْ عَلِمْتَ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الشُّرُوطِ فِي دُخُولِي فِي هَذَا الأَمْرِ**، فَقَالَ المَأْمُونُ: إِنَّمَا أُرِيدُ بِهَذَا أَنْ يَرْسَخَ فِي قُلُوبِ العَامَّةِ وَالجُنْدِ وَالشَّاكِرِيَّةِ هَذَا الأَمْرُ؛ فَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ وَيُقِرُّوا بِمَا فَضَّلَكَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَادُّهُ الكَلَامَ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ قَالَ:

يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! إِنْ أَعْفَيْتَنِي مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَإِنْ لَمْ تُعْفِنِي خَرَجْتُ كَمَا كَانَ يَخْرُجُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَكَمَا خَرَجَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام.

قَالَ المَأْمُونُ: اخْرُجْ كَمَا تُحِبُّ. وَأَمَرَ المَأْمُونُ القُوَّادَ وَالنَّاسَ أَنْ يُبَكِّرُوا إِلَى بَابِ أَبِي الحَسَنِ عليه السلام، فَقَعَدَ النَّاسُ لِأَبِي الحَسَنِ عليه السلام فِي الطُّرُقَاتِ وَالسُّطُوحِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، وَاجْتَمَعَ القُوَّادُ عَلَى بَابِ الرِّضَا عليه السلام.

فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَامَ الرِّضَا عليه السلام فَاغْتَسَلَ وَتَعَمَّمَ بِعِمَامَةٍ بَيْضَاءَ مِنْ قُطْنٍ وَأَلْقَى طَرَفاً مِنْهَا عَلَى صَدْرِهِ وَطَرَفاً بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَتَشَمَّرَ، ثُمَّ قَالَ لِجَمِيعِ مَوَالِيهِ: **افْعَلُوا مِثْلَ مَا فَعَلْتُ**، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ عُكَّازَةً وَخَرَجَ وَنَحْنُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ حَافٍ قَدْ شَمَّرَ سَرَاوِيلَهُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مُشَمَّرَةٌ.

فَلَمَّا قَامَ وَمَشَيْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ، فَخُيِّلَ إِلَيْنَا أَنَّ الهَوَاءَ وَالحِيطَانَ تُجَاوِبُهُ، وَالقُوَّادُ وَالنَّاسُ عَلَى البَابِ قَدْ تَزَيَّنُوا وَلَبِسُوا السِّلَاحَ وَتَهَيَّئُوا بِأَحْسَنِ هَيْئَةٍ، فَلَمَّا طَلَعْنَا عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الصُّورَةِ حُفَاةً قَدْ تَشَمَّرْنَا وَطَلَعَ الرِّضَا وَقَفَ وَقْفَةً عَلَى البَابِ وَقَالَ:

«**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا، اللهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا رَزَقَنَا مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى مَا أَبْلَانَا**»، وَرَفَعَ بِذَلِكَ صَوْتَهُ وَرَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا.

فَتَزَعْزَعَتْ مَرْوُ مِنَ الْبُكَاءِ وَالصِّيَاحِ، فَقَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَسَقَطَ الْقُوَّادُ عَنْ دَوَابِّهِمْ وَرَمَوْا بِخِفَافِهِمْ لَمَّا نَظَرُوا إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام، وَصَارَتْ مَرْوُ ضَجَّةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يَتَمَالَكِ النَّاسُ مِنَ الْبُكَاءِ وَالضَّجَّةِ.

فَكَانَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام يَمْشِي وَيَقِفُ فِي كُلِّ عَشَرَةِ خُطُوَاتٍ وَقْفَةً يُكَبِّرُ اللهَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَيُتَخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْحِيطَانَ تُجَاوِبُهُ. وَبَلَغَ الْمَأْمُونَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ ذُو الرِّئَاسَتَيْنِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنْ بَلَغَ الرِّضَا الْمُصَلَّى عَلَى هَذَا السَّبِيلِ افْتَتَنَ بِهِ النَّاسُ، فَالرَّأْيُ أَنْ تَسْأَلَهُ أَنْ يَرْجِعَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ فَسَأَلَهُ الرُّجُوعَ، فَدَعَا أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام بِخُفِّهِ فَلَبِسَهُ وَرَجَعَ»[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤٣ - ١٣٥.



الفصل الثالث

شَهَادَتُهُ وَمَزَارُهُ

وأخيراً دسّ إليه السم فمضى شهيداً شأن سائر أئمة الهدى الذين جاء عنهم الحديث الشريف: «**مَا مِنَّا إِلَّا مَسْمُومٌ أَوْ مَقْتُول**»[1].

ولكن من الذي فعل ذلك؟

يرى طائفة كبيرة من العلماء أن المأمون كان وراء ذلك، في حين يستبعد ذلك بعضهم ويتساءل عما إذا كان المأمون بهذا المستوى من الدناءة أن يلوث يده بهذه الجريمة النكراء؟

وقد رأيت بعضهم قد ساق عشرة أدلة على براءة المأمون من دم سيدنا الإمام الرضا عليه السلام ولكنها عند التمحيص تنتهي إلى دليل واحد هو استبعاد وقوع تلك الجريمة من شخص نصب نفسه للدفاع عن أفكار المذهب الشيعي، وتبني أفضلية الإمام عليه السلام.

ولكن إذا عرفنا أن المأمون العباسي كان واحداً من الخلفاء العباسيين الذين تميّز نظامهم بالغدر بأنصارهم، أو بالذين يخشون تابعيهم، ابتداء من أبي مسلم الخراساني وإلى برمك، وانتهاءً بفضل بن سهل. وإن المأمون كان متسنماً قمة هرم ذلك النظام الذي قد بُنيت مؤسساته على أساس البغي والمكر والغيلة، فما الذي يمنعه عن اتباع

(١) بحار الأنوار، ج٢٧، ص٢١٧. و ج٤٤، ص١٣٨.

سيرة أسلافه، وممارسة جرائم اجداده؟

على أن عقائده في خلق القرآن أو تفضيل الإمام علي على سائر الصحابة أو ما أشبه لم تجعله من شيعة علي وآل علي عليهم السلام، لأن استمراره في حكم المسلمين بذاته أكبر جريمة، وأعظم ذنب، وأعتى طغيان في منطق علي وشيعة علي. إذ إنه نوع من ادّعاء الربوبية ومنازعة الله في الألوهية!

ثم إن سيرته -مع الناس من القتل والتنكيل ونشر الفساد بمختلف ألوانه- تتنافى وأبسط مبادئ التشيع لآل البيت عليهم السلام. فما الذي يمنعه إذاً من ارتكاب جريمة القتل بحق آل بيت الرسالة؟.

وإننا لنقرأ في صفحات التاريخ ما يهدينا إلى أن شخص المأمون قد أشرف على عملية اغتيال الإمام عليه السلام عبر جهازه السري، الذي يُشابه في أيامنا مخابرات قصر الإمارة أو الرئاسة في الدولة الأشد ديكتاتوريةً في العالم.

وقد جاءت هذه الخطوة بعد أن قُمعت أو هدأت ثورات العلويين في أطراف الأرض، وانتهت فلسفة استدعاء الإمام عليه السلام إلى خراسان. وبعد أن بدأت تتجمع الغيوم فوق بغداد، وظهرت ارهاصات ثورة العباسيين، وأزمع المأمون على العودة إلى بغداد لاسترضاء بني عمه، والعودة إلى سيرة أجداده من لبس السواد وتوزيع المناصب على ذوي قرباه.

ولعل الحديث التالي يوضح هذه الحالة التي تَنَبَّه لها الإمام الرضا عليه السلام ونَبَّه إليها المأمون ربما ليعرف هذا الأخير أن الإمام واقف على نواياه، وأنه إنما يسايره حسب المصلحة العامة.

قال الإمام الرضا للمأمون يوماً في حديث مفصل:

«فَاتَّقِ اللهَ -يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ- فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَارْجِعْ إِلَى بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَمَعْدِنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَار.

ثم قال: أَرَى أَنْ تَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَتَتَحَوَّلَ إِلَى مَوْضِعِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ، وَتَنْظُرَ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَكِلَهُمْ إِلَى غَيْرِكَ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَائِلُكَ عَمَّا وَلَاكَ»[1].

ثم إن الفضل بن سهل تنبه إلى ذلك أيضاً فتراه يمتنع عن الرحيل مع المأمون، ويعتذر في ذلك إليه بالقول: «إِنَّ ذَنْبِي عَظِيمٌ عِنْدَ أَهْلِ بَيْتِكَ وَعِنْدَ الْعَامَّةِ وَالنَّاسُ يَلُومُونَنِي بِقَتْلِ أَخِيكَ الْمَخْلُوعِ وَبَيْعَةِ الرِّضَا عليه السلام، وَلَا آمَنُ السُّعَاةَ وَالْحُسَّادَ وَأَهْلَ الْبَغْيِ أَنْ يَسْعَوْا بِي، فَدَعْنِي أَخْلُفُكَ بِخُرَاسَان»[2].

ولكن المأمون يصدّ عليه بذلك وقد دبّر له أمراً. إنه لا يريد اغتياله في معقل قوته وبين أنصاره وأعوانه بل في الطريق.

وفعلاً -تقول الرواية- فلما كان بعد ذلك (والحوار بين المأمون والفضل) -بأيام ونحن في بعض المنازل- دخل الفضل الحمام «فَدَخَلَ عَلَيْهِ قَوْمٌ بِالسُّيُوفِ فَقَتَلُوهُ وَأُخِذَ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي الْحَمَّامِ، وَكَانُوا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ أَحَدُهُمْ ابْنُ خَالَةِ الْفَضْلِ ذُو الْقَلَمَيْنِ. قَالَ: وَاجْتَمَعَ الْقُوَّادُ وَالْجُنْدُ وَمَنْ كَانَ مِنْ رِجَالِ ذِي الرِّئَاسَتَيْنِ عَلَى بَابِ الْمَأْمُونِ، فَقَالُوا: اغْتَالَهُ وَقَتَلَهُ فَلَنَطْلُبَنَّ بِدَمِهِ»[3].

وهكذا تخلّص المأمون من أبرز مراكز القوى داخل سلطته،

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٦٤.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٦٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٦٨.

ولم يبق أمامه إلّا الإمام الرضا عليه السلام الذي تم اغتياله بعد ذلك بأيام قلائل. أولا يدل قرب وفاته عليه السلام وقتل الفضل على وجود مؤامرة قذرة ضده.

هكذا يتأكد لنا ما يذهب إليه المشهور من العلماء الشيعة من أن الإمام استشهد بسم المأمون حسبما يرى العلّامة المجلسي في قوله: "الأشهر بيننا أنه عليه السلام مضى شهيداً بسم المأمون". ويضيف: "وينسب إلى السيد علي بن طاوس أنه أنكر ذلك"[1].

دعنا نستمع إلى نبأ شهادته من لسان المعاصرين:

ألف: كان أبو الصلت الهروي من المعاصرين للإمام ومن صانعي الأحداث أو المراقبين لها عن كثب لصلته الوثيقة بالإمام، فيسأله أحمد بن علي الأنصاري عن سبب اغتيال المأمون للإمام الرضا عليه السلام، يقول له: "كَيفَ طَابَتْ نَفْسُ الْمَأْمُونِ بِقَتْلِ الرِّضا عليه السلام مَعَ إِكْرامِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ وَمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ وِلايَةِ الْعَهْدِ بَعْدَهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الْمَأْمُونَ إِنَّما كَانَ يُكْرِمُهُ وَيُحِبُّهُ لِمَعْرِفَتِهِ بِفَضْلِهِ، وَجَعَلَ لَهُ وِلايَةَ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ لِيُرِيَ النَّاسَ أَنَّهُ رَاغِبٌ فِي الدُّنْيَا فَيَسْقُطَ مَحَلُّهُ مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَلَمَّا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ فِي ذَلِكَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا ازْدَادَ بِهِ فَضْلاً عِنْدَهُمْ وَمَحَلّاً فِي نُفُوسِهِمْ، جَلَبَ عَلَيْهِ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الْبُلْدَانِ طَمَعاً مِنْ أَنْ يَقْطَعَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَيَسْقُطَ مَحَلُّهُ عِنْدَ الْعُلَماءِ، وَبِسَبَبِهِمْ يَشْتَهِرُ نَقْصُهُ عِنْدَ الْعَامَّةِ.

فَكَانَ لا يُكَلِّمُهُ خَصْمٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَالصَّابِئِينَ وَالْبَرَاهِمَةِ وَالْمُلْحِدِينَ وَالدَّهْرِيَّةِ وَلا خَصْمٌ مِنْ فِرَقِ الْمُسْلِمِينَ الْمُخَالِفِينَ لَهُ إِلَّا قَطَعَهُ وَأَلْزَمَهُ الْحُجَّةَ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: وَاللهِ إِنَّهُ أَوْلَى بِالْخِلافَةِ مِنَ الْمَأْمُونِ، فَكَانَ أَصْحَابُ الْأَخْبَارِ يَرْفَعُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَيَغْتَاظُ مِنْ ذَلِكَ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٣١١.

وَيَشْتَدُّ حَسَدُهُ، وكَانَ الرِّضا عليه السلام لا يُحابي المَأْمُونَ مِنْ حَقٍّ وكَانَ يُجيبُهُ بِما يَكْرَهُ في أَكْثَرِ أَحْوالِهِ، فيَغيظُهُ ذَلِكَ وَيَحْقِدُهُ عَلَيْهِ وَلا يُظْهِرُهُ لَهُ، فَلَمّا أَعْيَتْهُ الحِيلَةُ في أَمْرِهِ اغْتالَهُ فَقَتَلَهُ بِالسَّمِّ»[1].

باء: وينقل الشيخ المفيد –رضوان الله عليه– مجمل قصة شهادته، مع بعض التفسير لأسباب غيظ المأمون منه، فيقول:

«دَخَلَ الرِّضا عليه السلام يَوْماً عَلَيْهِ فَرَآهُ يَتَوَضَّأُ لِلصَّلاةِ وَالغُلامُ يَصُبُّ الماءَ عَلى يَدَيْهِ فَقالَ: **لا تُشْرِكْ يا أَميرَ المُؤْمِنينَ بِعِبادَةِ رَبِّكَ أَحَداً.**

فَصَرَفَ المَأْمونُ الغُلامَ وَتَوَلّى تَمامَ وُضوءِ نَفْسِهِ، وَزادَ ذَلِكَ في غَيْظِهِ وَوَجْدِهِ.

وَكانَ عليه السلام يُزْري عَلى الفَضْلِ وَالحَسَنِ ابْنَيْ سَهْلٍ عِنْدَ المَأْمونِ إِذا ذَكَرَهُما وَيَصِفُ لَهُ مَساوِيَهُما وَيَنْهاهُ عَنِ الإِصْغاءِ إِلى قَوْلِهِما، وَعَرَفا ذَلِكَ مِنْهُ، فَجَعَلا يُخَطِّئانِ عَلَيْهِ عِنْدَ المَأْمونِ وَيَذْكُرانِ لَهُ عِنْدَهُ ما يُبَعِّدُهُ مِنْهُ وَيُخَوِّفانِهِ مِنْ حَمْلِ النّاسِ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزالا كَذَلِكَ حَتّى قَلَبا رَأْيَهُ فيهِ وَعَمِلَ عَلى قَتْلِهِ عليه السلام.

فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَكَلَ هُوَ وَالمَأْمونُ يَوْماً طَعاماً فَاعْتَلَّ مِنْهُ الرِّضا عليه السلام وَأَظْهَرَ المَأْمونُ تَمارُضاً، فَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمْزَةَ عَنْ مَنْصورِ بْنِ بِشْرٍ عَنْ أَخيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ بِشْرٍ قالَ: أَمَرَني المَأْمونُ أَنْ أُطَوِّلَ أَظْفاري عَلى العادَةِ وَلا أُظْهِرَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ، فَفَعَلْتُ ثُمَّ اسْتَدْعاني فَأَخْرَجَ إِلَيَّ شَيْئاً يُشْبِهُ التَّمْرَ الهِنْدِيَّ، فَقالَ لي: اعْجِنْ هَذا بِيَدَيْكَ جَميعاً فَفَعَلْتُ، ثُمَّ قامَ وَتَرَكَني، وَدَخَلَ عَلى الرِّضا عليه السلام وَقالَ لَهُ ما خَبَرُكَ؟

قالَ: أَرْجو أَنْ أَكونَ صالِحاً.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢٩٠.

قَالَ لَهُ: أَنَا الْيَوْمَ بِحَمْدِ اللهِ أَيْضاً صَالِحٌ، فَهَلْ جَاءَكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَرَفِّقِينَ فِي هَـذَا الْيَـوْمِ؟ قَالَ: لَا، فَغَضِبَ الْمَأْمُونُ وَصَاحَ عَـلَى غِلْمَانِهِ، ثُمَّ قَالَ: فَخُذْ مَاءَ الرُّمَّانِ السَّـاعَةَ فَإِنَّهُ مِمَّا لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ، ثُمَّ دَعَانِي فَقَالَ ائْتِنَا بِرُمَّانٍ فَأَتَيْتُهُ بِهِ فَقَالَ لِي: اعْصِرْ بِيَدَيْكَ، فَفَعَلْتُ وَسَقَاهُ الْمَأْمُونُ الرِّضَا عليه السلام بِيَدِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ وَفَاتِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَوْمَيْنِ حَتَّى مَاتَ عليه السلام.

وَذُكِـرَ عَنْ أَبِي الصَّلْتِ الْهَرَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى الرِّضَا عليه السلام وَقَدْ خَرَجَ الْمَأْمُونُ مِنْ عِنْدِهِ.

فَقَالَ لِي: **يَا أَبَا الصَّلْتِ! قَدْ فَعَلُوهَا**. وَجَعَلَ يُوَحِّدُ اللهَ وَيُمَجِّدُهُ.

وَرُوِيَ عَـنْ مُحَمَّـدِ بْـنِ الْجُهْمِ أَنَّهُ قَـالَ: كَانَ الرِّضَـا عليه السلام يُعْجِبُهُ الْعِنَـبُ فَأَخَـذَ لَهُ مِنْهُ شَـيْئاً فَجَعَـلَ فِي مَوْضِعِ أَقْمَاعِـهِ الْإِبَرَ أَيَّامـاً ثُمَّ نَزَعَ وَجِـيءَ بِهِ إِلَيْهِ فَأَكَلَ مِنْـهُ وَهُوَ فِي عِلَّتِهِ الَّتِي ذَكَرْنَا فَقَتَلَـهُ. وَذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ لَطِيفِ السُّمُومِ.

وَلَمَّـا تُوُفِّيَ الرِّضَا عليه السلام كَتَمَ الْمَأْمُونُ مَوْتَهُ يَوْماً وَلَيْلَةً، ثُمَّ أَنْفَذَ إِلَى مُحَمَّـدِ بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عليه السلام وَجَمَاعَةِ آلِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَهُ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ نَعَاهُ إِلَيْهِمْ وَبَكَى وَأَظْهَرَ حُزْناً شَدِيداً وَتَوَجُّعَ، وَأَرَاهُمْ إِيَّاهُ صَحِيحَ الْجَسَـدِ، وَقَـالَ: يَعِزُّ عَلَيَّ -يَا أَخِـي- أَنْ أَرَاكَ فِي هَذِهِ الْحَالِ، قَدْ كُنْتُ أُؤَمِّلُ أَنْ أُقَدَّمَ قَبْلَكَ فَأَبَى اللهُ إِلَّا مَا أَرَادَ.

ثُمَّ أَمَرَ بِغُسْلِهِ وَتَكْفِينِهِ وَتَحْنِيطِهِ، وَخَرَجَ مَعَ جَنَازَتِهِ فَحَمَلَهَا حَتَّى أَتَـى إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي هُوَ مَدْفُونٌ فِيهِ الْآنَ فَدَفَنَـهُ. وَالْمَوْضِعُ دَارُ حُمَيْدِ بْنِ قَحْطَبَـةَ فِي قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا سَـنَابَادُ عَلَى دَعْوَةٍ مِـنْ نَوْقَانَ مِنْ أَرْضِ طُوسَ، وَفِيهَا قَبْرُ هَارُونَ الرَّشِيدِ وَقَبْرُ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام بَيْنَ يَدَيْهِ فِي قِبْلَتِهِ. وَمَضَى الرِّضَا عليه السلام وَلَمْ يَتْرُكْ وَلَداً نَعْلَمُهُ إِلَّا ابْنَهُ الْإِمَامَ بَعْدَهُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ

عَلِيٌّ عليه السلام، وَكَانَ سِنُّهُ يَوْمَ وَفَاةِ أَبِيهِ سَبْعَ سِنِينَ»[1].

جيم: ويصف ياسر الخادم اللحظات الأخيرة من حياة الإمام الرضا عليه السلام حيث تجلّت فيها روحه الربانية وخُلُقُهُ المحمدي فيقول:

«لَمَّا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ طُوسَ سَبْعَةُ مَنَازِلَ اعْتَلَّ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام فَدَخَلْنَا طُوسَ، وَقَدِ اشْتَدَّتْ بِهِ الْعِلَّةُ فَبَقِينَا بِطُوسَ أَيَّاماً، فَكَانَ الْمَأْمُونُ يَأْتِيهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَ فِي آخِرِ يَوْمِهِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ كَانَ ضَعِيفاً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَقَالَ لِي بَعْدَمَا صَلَّى الظُّهْرَ: **يَا يَاسِرُ! أَكَلَ النَّاسُ شَيْئاً**؟

قُلْتُ: يَا سَيِّدِي! مَنْ يَأْكُلُ هَاهُنَا مَعَ مَا أَنْتَ فِيهِ؟!.

فَانْتَصَبَ عليه السلام ثُمَّ قَالَ: **هَاتُوا الْمَائِدَةَ**.

وَلَمْ يَدَعْ مِنْ حَشَمِهِ أَحَداً إِلَّا أَقْعَدَهُ مَعَهُ عَلَى الْمَائِدَةِ يَتَفَقَّدُ وَاحِداً وَاحِداً، فَلَمَّا أَكَلُوا قَالَ: **ابْعَثُوا إِلَى النِّسَاءِ بِالطَّعَامِ**.

فَحُمِلَ الطَّعَامُ إِلَى النِّسَاءِ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنَ الْأَكْلِ أُغْمِيَ عَلَيْهِ وَضَعُفَ فَوَقَعَتِ الصَّيْحَةُ، وَجَاءَتْ جَوَارِي الْمَأْمُونِ وَنِسَاؤُهُ حَافِيَاتٍ حَاسِرَاتٍ، وَوَقَعَتِ الْوَجْبَةُ بِطُوسَ، وَجَاءَ الْمَأْمُونُ حَافِياً وَحَاسِراً يَضْرِبُ عَلَى رَأْسِهِ وَيَقْبِضُ عَلَى لِحْيَتِهِ وَيَتَأَسَّفُ وَيَبْكِي وَتَسِيلُ الدُّمُوعُ عَلَى خَدَّيْهِ، فَوَقَفَ عَلَى الرِّضَا عليه السلام وَقَدْ أَفَاقَ، فَقَالَ: يَا سَيِّدِي! وَاللهِ مَا أَدْرِي أَيُّ الْمُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ عَلَيَّ: فَقْدِي لَكَ وَفِرَاقِي إِيَّاكَ أَوْ تُهَمَةُ النَّاسِ لِي أَنِّي اغْتَلْتُكَ وَقَتَلْتُكَ؟ قَالَ: فَرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

«**أَحْسِنْ -يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ- مُعَاشَرَةَ أَبِي جَعْفَرٍ، فَإِنَّ عُمُرَكَ وَعُمُرَهُ هَكَذَا، وَجَمَعَ بَيْنَ سَبَّابَتَيْهِ**»[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٣٠٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢٩٩.

كما أنه يصف الحوادث التي وقعت بعد وفاته مباشرةً، فيقول:

«فَلَمَّا كَانَ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ قَضَى عَلَيْهِ بَعْدَمَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ بَعْضُهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ وَقَالُوا: هَذَا قَتَلَهُ وَاغْتَالَهُ يَعْنِي الْمَأْمُونَ، وَقَالُوا: قَتَلَ ابْنَ رَسُولِ اللهِ، وَأَكْثَرُوا الْقَوْلَ وَالْجَلَبَةَ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام اسْتَأْمَنَ إِلَى الْمَأْمُونِ وَجَاءَ إِلَى خُرَاسَانَ، وَكَانَ عَمَّ أَبِي الْحَسَنِ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ! اخْرُجْ إِلَى النَّاسِ وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ أَبَا الْحَسَنِ لَا يَخْرُجُ الْيَوْمَ، وَكَرِهَ أَنْ يُخْرِجَهُ فَتَقَعَ الْفِتْنَةُ، فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى النَّاسِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! تَفَرَّقُوا فَإِنَّ أَبَا الْحَسَنِ لَا يَخْرُجُ الْيَوْمَ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ، وَغُسِّلَ أَبُو الْحَسَنِ فِي اللَّيْلِ وَدُفِنَ»[١].

وبقي ضريح الإمام الرضا عليه السلام مزاراً يؤمه شيعة أهل البيت عليهم السلام ومحبوهم لما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته من الترغيب في ذلك، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«سَتُدْفَنُ بَضْعَةٌ مِنِّي بِأَرْضِ خُرَاسَانَ؛ لَا يَزُورُهَا مُؤْمِنٌ إِلَّا أَوْجَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْجَنَّةَ، وَحَرَّمَ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ»[٢].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«يَخْرُجُ وَلَدٌ مِنِ ابْنِي مُوسَى اسْمُهُ اسْمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) إِلَى أَرْضِ طُوسَ وَهِيَ بِخُرَاسَانَ، يُقْتَلُ فِيهَا بِالسَّمِّ، فَيُدْفَنُ فِيهَا غَرِيباً؛ مَنْ زَارَهُ عَارِفاً بِحَقِّهِ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى أَجْرَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ»[٣].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢٩٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢٨٤.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢٨٦.

وطفق الشعراء يرثونه بما يُفَتِّتُ كبد الحجر ألماً. كما أخذوا بفضح أولئك الغدرة الذين اغتالوه بالسم، فقال دعبل ضمن قصيدة:

أرعتم ذئاباً من أميّة وانتحت
عليهم دراكاً أزمة وسنون

وعاشت بنو العبّاس في الدين عيشة
تحكّمَ فيه ظالم وظنين

وسموا رشيداً ليس فيهم لرشده
وما ذاك مأمون وذاك أمين

فما قبلت بالرشد منهم رعاية
ولا لولي بالأمانة دين

رئيسهم غاوٍ وطفلاه بعده
لهذا رزايا دون ذاك مجون

ألا أيها القبر الغريب محله
بطوس عليك الساريات هتون[1]

وقال أبو فراس الحمداني يرثي الرضا عليه السلام:

باؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته
وأبصروا بعضه من رشدهم وعموا

عصابة شقيت من بعدما سعدت
ومعشر هلكوا من بعدما سلموا

لا بيعة ردعتهم عن دمائهم
ولا يمين ولا قربى ولا رحم[2]

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٣١٥، نقلاً عن مقاتل الطالبيين، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٣١٤.



الفصل الرابع

كلماتُه المُضيئةُ

هل يكفي الانتماء الاسمي إلى الإمام الرضا عليه السلام من دون معرفته، والاستضاءة بنور علمه ومعارفه؟ وكيف يرجو شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام يوم الجزاء مَنْ لم يتبع سننهم، ويهتدي بنورهم؟

إن علينا أن نبحث عن وصاياهم التي خلفوها لنا كنوزاً لا تنفد، وتلاداً نعم لا تُضاهى.

والإمام الرضا عليه السلام خلّف ميراثاً عظيماً من المعارف والعلوم، خصوصاً في الحكمة الإلهية، وبيان فلسفة الأحكام، والرد على المذاهب الباطلة.

ونحن في خاتمة كتابنا الذي تشرّف باسمه نُثبت وصاياه الرشيده وأشعاره الحكيمة، لعلّنا ننتفع بها:

قال علي بن شعيب:

"دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام فَقَالَ لِي: يَا عَلِيُّ! مَنْ أَحْسَنُ النَّاسِ مَعَاشاً؟ قُلْتُ: يَا سَيِّدِي أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. فَقَالَ عليه السلام: يَا عَلِيُّ! مَنْ حَسَّنَ مَعَاشَ غَيْرِهِ فِي مَعَاشِهِ. يَا عَلِيُّ! مَنْ أَسْوَأُ النَّاسِ مَعَاشاً؟ قُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ، قَالَ: مَنْ لَمْ يُعِشْ غَيْرَهُ فِي مَعَاشِهِ. يَا عَلِيُّ! أَحْسِنُوا جِوَارَ النِّعَمِ فَإِنَّهَا وَحْشِيَّةٌ مَا نَأَتْ عَنْ قَوْمٍ فَعَادَتْ إِلَيْهِم. يَا عَلِيُّ! إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ

مَنَعَ رِفْدَهُ وَأَكَلَ وَحْدَهُ وَجَلَدَ عَبْدَهُ، أَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللهِ فَإِنَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بِاللهِ كَانَ اللهُ عِنْدَ ظَنِّهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ قُبِلَ مِنْهُ الْيَسِيرُ مِنَ الْعَمَلِ، وَمَنْ رَضِيَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْحَلَالِ خَفَّتْ مَؤُونَتُهُ، وَنُعِّمَ أَهْلُهُ، وَبَصَّرَهُ اللهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ. لَيْسَ لِبَخِيلٍ رَاحَةٌ وَلَا لِحَسُودٍ، لَذَّةٌ وَلَا لِمَلُولٍ وَفَاءٌ، وَلَا لِكَذُوبٍ مُرُوَّةٌ»[1].

وقال عليه السلام: «إِنَّ أَوْحَشَ مَا يَكُونُ هَذَا الْخَلْقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُولَدُ وَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَيَرَى الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيُعَايِنُ الْآخِرَةَ وَأَهْلَهَا، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى أَحْكَامًا لَمْ يَرَهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا. وَقَدْ سَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى يَحْيَى عليه السلام فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْمَوَاطِنِ وَآمَنَ رَوْعَتَهُ؛ فَقَالَ فِي يَحْيَى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[2]، وَفِي عِيسَى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[3]».

«لَا يَتِمُّ عَقْلُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ:

الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، يَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ الْخَيْرِ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَسْتَقِلُّ كَثِيرَ الْخَيْرِ مِنْ نَفْسِهِ، لَا يَسْأَمُ مِنْ طَلَبِ الْحَوَائِجِ إِلَيْهِ، وَلَا يَمَلُّ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ طُولَ دَهْرِهِ، الْفَقْرُ فِي اللهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْغِنَى، وَالذُّلُّ فِي اللهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعِزِّ فِي عَدُوِّهِ، وَالْخُمُولُ أَشْهَى إِلَيْهِ مِنَ الشُّهْرَةِ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: الْعَاشِرَةُ وَمَا الْعَاشِرَةُ؟

قِيلَ لَهُ: مَا هِيَ؟

قَالَ عليه السلام: لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَأَتْقَى؛ إِنَّمَا

---

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ص ١٤٨.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٥

(٣) سورة مريم، الآية: ٣٣.

النَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَتْقَى وَرَجُلٌ شَرٌّ مِنْهُ وَأَدْنَى، فَإِذَا لَقِيَ الَّذِي شَرٌّ مِنْهُ وَأَدْنَى قَالَ: لَعَلَّ خَيْرَ هَذَا بَاطِنٌ وَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَخَيْرِي ظَاهِرٌ وَهُوَ شَرٌّ لِي، وَإِذَا رَأَى الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَتْقَى تَوَاضَعَ لَهُ لِيَلْحَقَ بِهِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ عَلَا مَجْدُهُ، وَطَابَ خَيْرُهُ، وَحَسُنَ ذِكْرُهُ، وَسَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ»[1].

وكان ينشد أشعاراً يقول فيها (ولعلها من إنشائه):

إِذَا كَانَ دُونِي مَنْ بُلِيتُ بِجَهْلِهِ
أَبَيْتُ لِنَفْسِي أَنْ تُقَابِلَ بِالْجَهْلِ
وَإِنْ كَانَ مِثْلِي فِي مَحَلِّي مِنَ النُّهَى
أَخَذْتُ بِحِلْمِي كَيْ أُجَلَّ عَنِ الْمِثْلِ
وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مِنْهُ فِي الْفَضْلِ وَالْحِجَى
عَرَفْتُ لَهُ حَقَّ التَّقَدُّمِ وَالْفَضْلِ[2]

وقال:

إِنَّكَ فِي دَارٍ لَهَا مُدَّةٌ ... يُقْبَلُ فِيهَا عَمَلُ الْعَامِلِ
أَلَا تَرَى الْمَوْتَ مُحِيطاً بِهَا ... يَكْذِبُ فِيهَا أَمَلُ الْآمِلِ
تُعَجِّلُ الذَّنْبَ لِمَا تَشْتَهِي ... وَتَأْمُلُ التَّوْبَةَ فِي قَابِلٍ
وَالْمَوْتُ يَأْتِي أَهْلَهُ بَغْتَةً ... مَا ذَاكَ فِعْلَ الْحَازِمِ الْعَاقِلِ[3]

وإلى هنا نختم حديثنا المختصر عن حياة سيدنا الإمام الرضا عليه السلام نسأل الله أن ينفعنا به يوم القيامة ويجعل ذلك وسيلة لاتباعنا له في الدنيا وشفاعته عند الله في الآخرة.

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ص ١٤٧.
(٢) في رحاب أئمة أهل البيت، ص ١٥٠.
(٣) في رحاب أئمة أهل البيت، ص ١٥٠.

المحتويات